كتـــاب

حيــاتنــا في الميـــزان

للفقير إلى ربـــه

محمد بن إبراهيم التويجري

الطبعـــــة الثانيـــة

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره .. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا .. ومن سيِّئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له .. ومن يضلل فلا هادي له .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله .

أما بعد:

حينما يُسرِّح الإنسان بصره في هذا الكون الفسيح يرى صوراً عجيبةً ، وأنماطاً غريبةً ، في حياة لفيف من الناس ، ذكوراً وإناثاً ، شباباً ، وشيباً ولو أطلقنا العين لتبصر ، والأذن لتسمع ، والعقل ليحكم في حال الأمة ، لرأينا ما لا يسر ... ولسمعنا ما نكره ... وأدركنا أننا في فتنة تدع الحليم حيراناً .

شغلني وأرَّقني ما رأيت من خلط عجيب ، وتناقض غريب ، في تطبيق أحكام الله بين أفراد الأمة رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً ...

ويزداد الأمر خوفاً وفزعاً ، وحسرة وألماً ، إذا كان هذا الخلط والتناقض في حياة الفرد نفسه ، في شكله وأخلاقه وأسلوب حياته .

إن ربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ورسولنا واحد ، والقبلة واحدة ، والحق واحد ... فلم الفرقة والاختلاف ...؟

لِمَ لا نأخذ الماء عذباً صافياً من منبعه ونطرح ما سواه ؟

أليس بين أيدينا النور ؟ فَلِمَ نتخبط في الظلمات ...؟

أليست عقولنا من أجل كرامتنا ، فَلِمَ نتردى إلى رتبة البهائم ...؟

لقد ساءت حال الأمة ، وصار أبناؤها مِللاً شتَّى ، فرقتهم الأهواء ، والشهوات ، والشبهات حتى صار ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون/ ٥٣] .

ألا ترى بين أفراد الأمة ، بل بين أفراد الأسرة الواحدة ، صوراً مختلفةً ، تدل على فساد المزاج ، وسوء في الفهم ، وضعف في الرؤية ، واتباع للهوى وانقياد للشيطان : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء/ ٣٨] .

ولو تأملت أفراد أسرتك ، أو أفراد أسرة من الأسر ، لرأيت ذلك واضحاً بين أفراد كل أسرة إلا ما رحم ربك : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ/ ٢٠] .

وخذ ما يعرق له الجبين ، ويسر الشياطين ، ويُغضب رب العالمين ، فقد ترى الأب تقيّاً صالحاً ... والابن فاجراً داعراً !

وقد يكون الأب مؤذناً ... والابن مغنياً !

وقد ترى الأب قد أطلق لحيته ... والابن قد حلقها !

وقد تشاهد الأب يعمل في حقل تربوي ... وابنه في بنك ربوي !

وقد ترى الأب يأكل الطيبات ... وابنه يتعاطى المسكرات والمخدرات !

وقد يكون العكس !

وقد ترى الأم طيبة فاضلة ... وابنتها متبرجة فاتنة في لباسها في مشيتها في كلامها ... تمارس الرذيلة ، وتسخر من الفضيلة ، تارة مطربة ، وتارة راقصة ، وقد يكون العكس .

وهكذا تموج الأمة بين مد وجزر ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين الحق والباطل ، تعيش على الفوضى والتمزق ، وتسهر على الخلاف والفرقة ، وترقد على الفساد والغفلة .

أجسام بلا عقول ، وصور بلا معاني : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[النساء/ ١٤٣] .

فإذا ما اجتمعت هذه الأضداد من خير وشر ، من حق وباطل ، في شخص واحد ، فتلك هي المصيبة التي يندى لها الجبين ، ويحار لها العقل ، وتتفطر لها الأكباد : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج/ ٤٦] .

ألست ترى رجلاً قد يكون من أهل بيتك ، أو من أقاربك ، أو جيرانك ، أو زملائك ، ألست تراه في أحوال عجيبة .

تارة مع المصلِّين ... وتارة مع المغنين .

تارة في المسجد ... وتارة في المرقص .

تارة يغتسل من النكاح ... وتارة يغتسل من السفاح .

تارة بيده السواك ... وتارة بيده السجائر .

تارة يأكل الطيبات ... وتارة يتناول الخبائث .

تارة يسمع القرآن ... وتارة يسمع الألحان .

تارة يقبل الحجر الأسود ... وتارة يقبل ذات الخمار الأسود .

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة/ ٨٥] .

ما الذي أصاب الأمة حتى وقعت في هذا الخلط العجيب ...؟

أليس كل راع مسؤلاً عن رعيته ...؟

ألا تتبعنا مواطن الداء لعلّنا نجده ...؟

إننا نداوي الأبدان من عللها ، فهل نعالج القلوب من أمراضها ...؟

قال الحسن البصري : أصول الشر ثلاثة : الكبر ... والحرص ... والحسد .

فالكبر منع إبليس من السجود لآدم ، والحرص أخرج آدم من الجنة ، والحسد حمل ابن آدم على قتل أخيه .

وهذه أخطر أمراض القلوب ، فهلاَّ عالجنا قلوبنا لتبرأ منها ...؟

إن في صلاح القلب صلاحاً لسائر الجسد ، وفي فساد القلب فساداً لسائر الجسد .

قال النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ، ألا وهي القلب » متفق عليه [1] .

إذا صلح القلب صلحت اليد فلا تسرق أو تعتدي ، وصلح الفرج فلا يزني ، وصلح اللسان فلا يقول إلا خيراً ، وصلحت الرِّجل فلا تمشي إلا إلى خير ، وصلحت الأذن فلا تسمع الغناء والمعازف والغيبة والنميمة ، وصلحت العين فلا تقع على ما حرم الله ...

وإذا فسد القلبُ فسد سائر الجسد ، وظهرت آثاره على الأعضاء والجوارح ، فلا تمضي إلا إلى فساد ، تنقل صاحبها من معصية ، إلى معصية ومن صغيرة إلى كبيرة ، ومن مكروه الى محرم .

وإنما يصلح أمر القلب بالتوحيد ، فإذا استنار القلب بنور التوحيد عرف ربّه ومعبوده ، وما يجب له ، وأدرك ما ينفعه وما يضرّه ، فاطمأن القلب لذكر ربِّه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد/ ٢٨] .

وهذه بعض الصور والمشاهد من حياتنا على سبيل المثال لا الحصر .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٥٩٩) .

الصــــلاة

الصَّلاة لقاء يومي بين الخلق والخالق ، أكرم الله بها من آمن به ، وجعلها صلة بينهم وبينه ، يتقربون بها إلى الله ...

فيكبرونه .. ويتلون آياته ، ويحمدونه على نعمه ، ويستغفرونه من ذنوبهم ، ويسألونه من فضله ، فيستجيب دعاءهم ويزيدهم من فضله ، ويغفر لهم ذنوبهم ، فمن لم يفقه أهمِّية الصلاة فهو بعيد من نفسه ، بعيد من ربِّه : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود/ ١١٤] .

رأيتُ رجلاً إذا أذن المؤذن للصّلاة ضاقت الدنيا عليه ، وأخذ يضرب في فجاج الأرض حيران ، تارة يأخذ ذات اليمين ، وتارة ذات الشّمال ، بحثاً عن ملجأ يكنّه في غرفة خاوية ، أو تحت شجرة نائية ، أو على ظهر سيارة متحركة أو ساكنة ، يحرق السجائر بفمه ، ويسمع الغناء بأذنه ، ويسخر من عباد الله بلسانه وقلبه : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [المائدة/ ٥٨] .

قد جمع الشَّرَّ من أطرافه ، وفرقه من قلبه على أعضائه ، في وقت مبارك ، المصلّون فيه في المسجد : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح/ ٢٩] .

أبدانهم طاهرة ، وقلوبهم مخبتة ، وأرواحهم خاشعة ، وأعينهم باكية ، وألسنتهم رطبة بذكر الله يتلون كتاب الله ، ويؤدون ما افترض الله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون/ ١-٣] .

فإذا قُضِيَت الصلاة عاد الجميع لمزاولة أعمالهم بجديّة وهمّة ونشاط ، وإذا به يعود أشعثَ أغبر من مخبئه ، بعد هروبه من الأذان الذي أفزعه ، والصّلاة التي أوحشته فصار قريناً للشيطان : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء/ ٣٨].

فقلت : أما آن لمثل هذا أن يبصر الطريق ، ويدرك أهمية الصّلاة ، ويجتمع مع الجماعة ، في عصر تنوعت فيه وسائل المعرفة مقروءة ، ومسموعة ، ومرئية .

ما هذا الهروب ...؟ ما هذا العزوف ...؟ ما هذا الجفاء ...؟ ما هذه الوحشة ...؟

فناديته وسلّمت عليه ، وجلست إلى جواره ، متفائلاً أن يكون تقارب الأجسام سبباً لتقارب القلوب .
فسألته عن الصّلاة ؟ فقال : أنا لا أصلي ؟ قلت : ولِمَ ؟ قال : لأن الله ليس بحاجة إلى صلاتنا ، فأي فائدة نجنيها من الصلاة كل يوم خمس مرات في المسجد ؟
قلت : أتعلم أن لله خزائن السموات والأرض ، ونحن الفقراء ، وهو الغني الحميد ، خلقنا حفاةً عراةً ، صفرَ الأكفّ ، ضعافَ الأجسام ، لا نملك ضرّاً ولا نفعاً ، ولا هداية ولا علماً .
ثم بفضله ورحمته سبحانه أطعمنا ، وسقانا ، وكسانا ، وقوّانا ، وعلَّمنا ، وهدانا ، وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ علينا نعمه الظاهرة والباطنة ، فالله هو الغني ونحن الفقراء : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر/ ١٥] .
قال : وهذا يدل على أن الله ليس بحاجة إلى صلاتنا ، فهو الغني وصاحب الفضل والمعروف على عباده فجميع النعم منه .
قلت : أرأيت لو أن أحداً أهدى إليك ساعةً ، أو دلّك على الطريق ، أو سقاك شربة ماء على ضمأ ألا تشكره ؟ ألا تحبه ؟
قال : بلى ، وأتمنى أن أكافئه على معروفه بأحسن منه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .
قلت : فإذا فوجئت يوماً بأنه أهداك سيارة ثمنية ، وداراً فسيحة ، وملأها بما تحتاج من طعام وأثاث ، فماذا يكون موقفك منه ؟
قال : إن صار ما تقول فلا ريب أنه أحاطني بمعروفه ، وغمرني بإحسانه ، وبالطبع يحبه قلبي ، لمعروفه عليَّ ، وإحسانه إليَّ ، وعسى أن أوفق لشكره بلساني ويدي .
قلت : فأخبرني ... من خلقك وصورك ؟ من أسكنك في الأرض ؟ من يطعمك كل يوم ؟ من يسقيك كل يوم ؟ من كساك ما تواري به عورتك ؟ من خلق فيك السمع والبصر ، وزودك باليدين والرجلين ، وأعطاك لساناً تتكلم به ، وعقلاً تفكر به ، ورزقاً تنعم به ؟
قال : هو ربي لا إله إلا هو خالق كل شيء .
قلت : من أرشدك إليه ، ووفقك وهداك للإيمان به ؟
قال : هو سبحانه : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف/ ١٧].

قلت : أرأيت لو أن الله طردك من أرضه فأين تسكن ؟ أو منعك رزقه فمن أين تأكل ؟ أو غوَّر المياه فمن أين تشرب ؟ أو رفع الهواء فمن أين تتنفس ؟ أو تركك ضالاً فكيف تهتدي ؟ إذا أصابك الجوع من تسأل ؟ إذا مرضت من تدعو ؟ إذا ضاقت عليك الحيل من تسأل ؟ إذا أصابك الهم من تدعو ؟ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة/ ١٨٦] .

من المنعم على الدوام أبداً ؟ من الغني الذي لا تنقضي خزائنه ؟ من المنعم على الغني والفقير والمحتاج ؟ من الذي يُطعِم ولا يُطعَم ؟ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل/ ٥٣] .

من الذي لا يظلم مثقال ذرَّة ؟

من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ؟ وجعل لها رواسي ؟ من جعل بين البحرين حاجزاً ، هذا عذبٌ فرات ، وهذا مِلْح أجاج ...؟

من رفع السماء بلا عمد ؟ من زينها بالنّجوم ؟ من خلق الشّمس والقمر؟

من خلق الخلق ورزقهم ؟ من قسم بينهم معيشتهم ؟ من الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم ؟ من له الخلق والأمر ؟ من الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟

قال : الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

قلت : ومن هذه صفاته ، وهذا خلقه ، وهذه قدرته ، وهذه عظمته كيف تعصيه ؟ .

أتدري من أنت ؟ ... أتدري من تعصي ؟ ... وفقك الله لا تنظر إلى عظم المعصية ، وانظر إلى عظمة من تعصيه ، مع سوابغ نعمه ، وغناه عنك ، وفقرك إليه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر/ ٦٧] .

ألا ما أعظم لطف الله بعباده ، وما أوسع حلمه على من عصاه : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشورى/ ١٩] .

ألا إن أجمل الجميل ، أن نعترف لصاحب الجميل بفضله ، ونشكره على جميل صنعه .

أعلمت صنعةً تقفُ أمام صانعها كل يوم خمس مرات ...؟

أعرفت صانعاً يجمع كل مصنوعاته كل يوم خمس مرات ، ليتفقدها ، ويطمئن عليها ، لتؤدي دورها في الحياة على أكمل صورة ؟ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون/ ١-٢] .

إن ربك يدعوك كل يوم خمس مرات ، في خمسة أوقات ، لتقف بين يديه وقوف الصغير بين يدي الكبير ، تحمده سبحانه ، وتشكره على نعمه ، وترجو رحمته ، وتسأله من فضله ، وتستغفره من ذنوبك ، وتستعين به وتستهديه .

تالله إن صنعةً تقف بين يدي خالقها كل يوم خمس مرات لن يصيبها خلل أو يعتريها فساد ، أو يؤرقها خوف أو حزن : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت/ ٣٠-٣٢] .

إنك تطيع من فوقك من رؤسائك فيشهدون لك بالوفاء والإخلاص وتقبض منهم أجراً محدوداً يفنى بعد حين .

إن وقوفك في الصَّلاة تناجي ربَّك دليل على طاعتك لربِّك ، وإخلاصك له وإيمانك به ، فأيُّ خير أنت فيه : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب/ ٤٧] .

وأيُّ ربح تجنيه : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة/ ٧٢] .

فهل يستويان ...؟ كلا ... فعطاء المخلوق محدود ، وعطاء الله مطلق ... وما عند المخلوق يفنى ، وما عند الله باق .

إنَّ الله دعاك إلى سؤاله ليعطيك ، ودعاك إلى استغفاره ليغفر لك ، ودعاك إلى دعائه ليستجيب لك : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر/ ٦٠] .

فأي ربح يجنيه من يصلي ...؟...؟ وأيُّ خسران يحل بمن لا يصلي ...؟

ألا ما أكثر الأخطاء والآثام والمعاصي في حياتنا اليومية ... نحن كل يوم بين أخذ وعطاء ، بين فقر وغنى ، بين صحة ومرض ، بين حزن وسرور ، بين خوف وأمن ، بين إحسان وإساءة ، بين ربح وخسارة .

أليس في الصلاة متنفسٌ عن ما نكره من هذه المزعجات ...؟ بلى وربِّي ... يقف المسلم في صلاته يناجي ربَّه يسأله العون والتأييد ، يستغفره من ذنوبه ، يسأله العفو إن أساء إلى أحد من الخلق ، أو أسرف على نفسه ... إنه يدخل في صلاته وهو بين نعم تستوجب الشكر والحمد ، وبين آثام اقترفها يسأل ربَّه أن يغفرها .

فيطمئن قلبه بذكر ربِّه ، وتستلذ نفسه بمناجاته لربِّه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد/ ٢٨] .

ومن أجل هذا كان الرسول ﷺ إذا حَزبه أمرٌ فزع إلى الصَّلاة ، يجد فيها راحة لنفسه من هموم الحياة ، وطمأنينة لقلبه بمناجاة ربِّه ، لأنها تصله بخالقه ومحبوبه : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة/ ٤٥–٤٦] .

أتطمع في الدخول على الملوك والرؤساء كل سنة ، فضلاً عن كل شهر ، لقضاء حاجة أو الاعتذار عن زلة ؟ قد تدرك بعض هذا ، وقد يمضي عمرك ولم ترهم ، فضلاً عن أن تدخل عليهم ...

أتطمع في الدخول عليهم كل يوم مرة ؟ قد يجول بخاطرك هذا .

أتطمع أن تدخل عليهم كل يوم خمس مرات ، وتمكث ما شئت ، وتقول ما شئت ، وتسأل ما شئت ، في أي وقت شئت ؟ أظنه بعيداً جداً إن لم يكن مستحيلاً ...

إن ملك الملوك سبحانه يدعوك كل يوم خمس مرات حتماً لتناجيه ... لتدعوه ، لتسأله ... لتستغفره ، طاهر البدن ، حاضر القلب ، في صلاة جمعت جميع ألوان التعظيم للخالق سبحانه طهارةً وتوحيداً ، تكبيراً وتحميداً ، قولاً وفعلاً ، خشوعاً وخضوعاً ، ركوعاً وسجوداً : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء/ ١٠٣] .

فمن أحب أن يكلم الله فليدخل في الصلاة ، ومن أحب أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ، إذا استعنت فاستعن بالله ، وإذا سألت فاسأل الله وحده ، إن كنت ضالاً فسل الله الهداية فهو الهادي إلى سواء السبيل : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الأعراف/ ١٧٨] .

وإن كنت مذنباً ومسرفاً على نفسك فسل الله العفو والمغفرة فهو العفو الغفور .

وإن كنت فقيراً فسل الله الغنى فهو الغني الحميد ...

وإن كنت جاهلاً فسل الله العلم فهو العليم الخبير ..وإن كنت ضعيفاً فسل الله القوة فهو القوي العزيز :﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠ ﴾ [الأعراف/ ١٨٠] .

فقل : يا رحمان ارحمني ، يا رزَّاق ارزقني ، يا عفو اعفُ عنِّي .

إنك لا تجد الخير كله ، والرزق كله ، واللطف كله ، والأنس كله ، والعفو كله ، إلا عند من له الخلق والأمر ، عطاءً بلا حدود ، ورحمة وسعت كل شيء .

فمن ابتغى ذلك كله فليتصل بخالقه عن طريق الصلاة ، ويسأله ويستغفره ويدعوه فإن الله يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ ﴾ [البقرة/ ١٨٦] .

إنَّما المؤمنون اخوة يحب الواحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ولكل واحد منهم على الآخر حقوق ، ومن لطف الله بعباده أن جمعهم في المسجد كل يوم خمس مرات ، فيسلم بعضهم على بعض ، ويُعاد مريضهم ، وتُشهد جنائزهم ، ويُعلَّم جاهلهم ، ويُسأل عن غائبهم ، ويُحْسَن إلى فقرائهم ...

يجتمعون في بيت الله بقلوبهم ، بعد أن فرقت بين أجسادهم جدران بيوتهم ، يتسابقون إلى الخيرات ، وتضاعف لهم الحسنات ، ويتفاضلون بالتقوى لا بالعرق الأقوى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات/ ١٣] .

ألا تحب أن يغفر الله لك ذنوبك ...؟ فإلى الصلاة بخشوع وخضوع بين يدي رب العالمين ...

قال النبي ﷺ : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » أخرجه مسلم [1].

ألا تحب سُكنى الجنَّة ...؟ فإلى الصلاة في المسجد مع إخوانك المسلمين ...

قال النبي ﷺ : « من غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنَّة نُزلاً كلما غدا أو راح » متفق عليه [2].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥١) .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٦٦٢) ، ومسلم برقم (٦٦٩) .

ألا تحب القرب من ربِّك ...؟ فإلى الصلاة ...؟

قال النبي ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[1].

أتريد الفوز والفلاح ؟ ... فإلى الصلاة : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون/ ١-٢] .

أتريد الخير كله ؟... فإلى الصلاة : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت/ ٤٥] .

أتريد النجاة من النار ؟... فإلى الصلاة ... قال الله سبحانه عن المجرمين : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر/ ٤٢-٤٣] .

إنك لو أقمت خباء له ألف وتد ، فلن تستفيد منه إن لم يكن له عماد في الوسط ، والصلاة هي عمود الإسلام ... فاحفظها وبادر إليها : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة/ ٢٣٨] .

إنك إن داومت على عملك وأتقنته ، قبضت راتبك آخر الشهر كاملاً ، فإن تغيبت وأهملت حُسم عليك بقدر غيابك وإهمالك ، وكذا الصلاة يكتب الله لك منها بقدر أدائك لها ، وحضور قلبك فيها : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون/ ٤-٥] .

الصلاة مكيال ، فمن أوفى استوفى ، ومن طفف أساء ونقص أجره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾ [الحشر/ ١٨] .

إن الصلاة أعظمُ أركان الإسلام بعد الشهادتين ، من تركها فقد كفر .

قال النبي ﷺ : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » أخرجه مسلم [2] .

إن الصلاة لأهميتها من بين سائر شرائع الإسلام ، فرضها الله على رسوله مباشرة ، أسرى به ربه إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السماء وأمره بها ، هي خمس في العمل ، وخمسون في الأجر ، ليظل المؤمن على صلة بربِّه كل يوم يكبره ، ويحمده ، ويسأله ، ويستغفره ، ويقم التحيات له .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٢) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٢) .

وذكر النبي ﷺ الصلاة يوماً فقال: « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبَيِّ بن خلف» أخرجه أحمد[1] .

وإنما يحشر تارك الصلاة مع هؤلاء الأربعة ، لأنه إما أن يشتغل عن الصلاة بما له ، أو بملكه ، أو بوزارته أو بتجارته .

فإن اشتغل عن الصلاة بماله حُشر مع قارون ، وإن اشتغل عنها بملكه حُشر مع فرعون ، وإن اشتغل عنها بوزارته حُشر مع هامان ، وإن اشتغل عنها بتجارته حُشر مع أُبَيٍّ بن خلف .

فهل أدركت أهمية الصلاة ، وعظيم بركتها ؟ وهل عرفت أي مصيبة تحل بمن تركها ، أو أخَّرها ، أو ضيَّعها ؟ .

قال : سدد الله خطاك : إن الجهل بدين الله يورد المهالك ، وطاعة الشيطان خطوات إلى النار ، واتباع الشهوة والهوى سبب للفساد والحرمان : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر/ ٩] .

أنخاف شرطيّاً في الأرض ... ولا نخاف خالق السماء والأرض ...؟

أنشكر من أهدى إلينا هدية ... وننسى خالقنا وخالقه وخالق الهدية ...؟

أنطيع من يَعِدنا الفقر ، ويأمرنا بالفحشاء ... ونعصي من يَعِدنا مغفرة منه وفضلاً ...؟ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج/ ٤٦] .

وآ أسفاه على دهرٍ مضى ، وعمر انقضى ، وأنا مع الذين إن قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرأؤن الناس ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر/ ٥٦] .

اللهم إني أسألك إيماناً كاملاً ، ويقيناً صادقاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً ، وتوبة نصوحاً .

اللهم يا واسع المغفرة ، ويا من وسعت رحمته كل شيء ، اغفر لي وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف/ ٢٣] .

---

(١) حسن/ أخرجه أحمد برقم (٦٥٧٧) .

الغيبـــة والنميمـــة

إنما المؤمنون إخوة ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

والغيبة والنميمة من الآفات التي تفصم هذه الأخوة ، وتهدم بنيان الأمة ، وتمزق شملها ، وتورث الحسد والحقد ، وتقلب المجتمع ناراً ملتهبة تأكل الأخضر واليابس ، فكيف طابت نفوس البعض منا باستحسانها ، والجلوس على موائدها .

رأيت رجلاً يصلي ويتلو كتاب الله في بيت الله ، لكنه لا يكف عن الغيبة والنميمة في كل طريق يمر به ، أو مجلس يحل به ، يأكل أعراض الناس بلا خوف ولا حياء ، وكأنما يلتهم أطايب الطعام ، ولذيذ الشراب ، سحابة ليله ونهاره في قيل وقال ، وسخرية واستهزاء .

فقلت : أما آن لهذا أن يفقه أن الصلاة لربِّه تنافي هذا وأمثاله .

إن الصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، إذا تحولت إلى حركات بدنية ، تُؤدَّى حال غيبوبة عقلية ، ولا خير في قراءة بلا تدبر ، ولا في نظر بلا تفكر ، ولا في علم بلا عمل .

إن الغيبة والنميمة من مساوىء الأخلاق التي تمزق شمل الأمة ، وتهدم بنيانها .

فالغيبة هي : ذكرك أخاك بما يكره بقول ، أو إشارة ، أو غمز ، أو كتابة ، وهي محرمة في دين الله .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ [الحجرات/ ١٢].

وقال النبي ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه » أخرجه مسلم[1] .

والنَّمَّام هو : الذي ينقل الحديث بين الناس على جهة الإفساد بينهم ، والنميمة حرام في شرع الله .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۢ بِنَمِيمٖ ١١ ﴾ [القلم/ ١٠-١١] .

وقال النبي ﷺ : « لا يدخل الجنَّة نمَّام » متفق عليه[2] .

ومر النبي ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » متفق عليه[3] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤) .

(٢) **متفق عليه** ، أخرجه البخاري برقم (٦٠٥٦) ، ومسلم برقم (١٠٥) .

(٣) **متفق عليه** ، أخرجه البخاري برقم (٢١٨) ، ومسلم برقم (٢٩٢) .

وقال النبي ﷺ : « تجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » متفق عليه [1] .

ألا ما أخطر فضول الكلام ... وما أكثر الذنوب التي تحصدها الألسنة ... وما أعظم العقوبة عليها عند رب العالمين .

إن فضول الكلام كالغيبة والنميمة ، والكذب والمراء ، والسخرية والاستهزاء ، آفات مهلكة .

أما يستحي أحدنا إذا نشرت صحيفته غداً وإذا أكثر ما فيها قيل وقال ونحوها من فضول الكلام الذي ليس من أمر دينه ولا دنياه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٦] .

فالقلب واللسان والجوارح خلقها الله لعبادته ، فلا تشغلها بغير طاعته من قول أو عمل صالح ، فالقلب للإيمان والتوحيد ، واللسان لذكر الله وحمده وتمجيده ، والدعوة إلى الله ، وتعليم شرع الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٤١-٤٤] .

إن فضول الكلام لا ينحصر ؛ بل المهم محصور في كتاب الله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء/ ١١٤] .

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأقوال والأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت .

(١) **متفق عليه** ، أخرجه البخاري برقم (٣٤٩٤) ، ومسلم برقم (٢٥٢٦) .

إضـــاعة الوقـــت

الوقت إناء للعمل ، والعمل إما نافع أو ضار ، والإنسان آلة العمل .

وإضاعة الوقت أعظم من الموت ، ذلك أن الإنسان بالموت إنما يخسر الدنيا ، ولكنه بإضاعة الوقت سدىً إنما يخسر الدنيا والآخرة .

وقد أمرنا الله بحفظ الوقت ، وشغله بالأعمال الصالحة من صلاة وصيام ، وحج وإحسان ، وذكر وشكر ... وعمل صالح ، وجهاد ، وطلب معاش : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٦٢-١٦٣] .

رأيت رجلاً يمزق وقته شر ممزق ، ويبعثر جهده وفكره فيما لا طائل تحته ، ولا خير بعده ، من جلوس في الطرقات ، وتتبع للعورات ، وانهماك في المحرمات ، وإطلاق لسانه وسمعه وبصره فيما حرم الله : ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء/ ٣٨] .

فقلت : أما آن لمثل هذا أن يتفطن لنفسه ، ويستيقظ من رقدته ، ويُسخِّر بقية أيامه في الأعمال الصالحة ، وفيما يقربه من ربِّه ، وينفعه في دنياه وآخرته .

إنه أحد المخاطبين بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر/ ٩٢-٩٣] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج/ ٧٧] .

فكيف فاته لفظ هذه الآيات ، ومعناها ، وثمرتها ، وتهديدها ...؟

فأي غراس يغرس مثل هذا في حياته ؟ وأي حصاد يحصد غداً بعد مماته ؟ وبأي وجه يلقى ربه غداً ؟.

ألهذا خلق الناس ...؟ كلا : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون/ ١١٥-١١٦] .

إنه لا سعادة إلا باتباع الحق ، والسماء والأرض خُلقت بالحق فيجب أن نتعرف على هذا الحق ونعمل

به ، وندعوا إليه : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت/ ٣٣] .

إن الإسلام يَرسم لكل مسلم منهاجاً يستغرق جميع أوقاته ، ويملؤها بالأعمال الصالحة ، ولا يترك فرصة للشيطان أن يعبث بحياة الإنسان ويجعله أسير شهوته .

الصلوات الخمس ، والنوافل ، والأعمال الصالحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والدعوة الى الله ، وتعليم شرع الله ، والصوم ، والكسب الحلال ، والذكر ، والجهاد : ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر/ ١-٣] .

إن الأشجار العالية لا تدع فرصة للحشائش الضارة أن تنمو وتتكاثر ... فلنبادر إلى الأعمال الصالحة فإنها تنسف السيئة بإذن الله : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود/ ١١٤] .

إن القلب إذا امتلأ بالحق فلن يتسع للباطل : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء/ ٨١-٨٢] .

فالوقت والعمر يمضيان ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق ، شغلتك بالباطل : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس/ ٧-١٠] .

ألا إن الكسب مستطر ، والجزاء منتظر ، فهل علمنا ؟ وإذا علمنا فهل عملنا ؟ فكل أحد سوف يجزى بعمله : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم/ ٣٩-٤١] .

واعلم أن الليل والنهار خزانتان من خزائن الله ، فلينظر أحدكم بما يملأ خزانته .

نهارك ضيفك فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بذمّك وكذلك ليلك : ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران/ ١٣٣-١٣٤] .

اللهم وفقنا للأعمال الصالحة ، وجنبنا الفواحش والآثام ، واجعلنا من عبادك الأخيار .

الغنـــاء والمعــازف

الإنسان مجموعة من الغرائز ، هذبها الإسلام ، وسلك بها الصراط المستقيم .

والغناء إنما يهيج شهوة الفرج ، ويوقظ الغرائز في الذكور والإناث ، فيكون سبباً للزنا الذي يفسد البيوت ، ويمزق الأسر ، ويقرنها بالبهائم : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٢] .

رأيت فتىً يغني بين صوت المزامير ، وتصفيق الحاضرين ، وحوله رفاقه يرقصون ويضحكون ، ويأكلون ويشربون ، لا همَّ لأحدهم أن يتقدم خطوة ، أو يتسنم ذروة ، فيعلم جاهلاً ، أو يعالج مريضاً ، أو يرد عدواً ، أو يواسي محتاجاً .

فقلت : أهؤلاء من جسد الأمة الإسلامية الذي أثخنته الجراح ، وركلته الأحداث ، وأحاط به الأعداء من كل جانب : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف/ ٨] .

كيف يغني هذا وأخوه في القدس يبكي ...؟ هذا يمسك آلة الطرب بيديه ، وأخوه أمام الأعداء يمسك السلاح بيديه ... وهؤلاء يضحكون ، ويرقصون ويلعبون ... وإخوانهم في سجون الأعداء أسرى يعذبون ويقتلون ... إن لم نشاركهم بالمال والنفس ، فهلاَّ شاركناهم بالشعور والوجدان ...

أليس المؤمنون اخوة ...؟ بلى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾[التوبة/ ٧١] .

وتأخذك الدهشة ، ويعتصر في فؤادك الحزن والألم ، وأنت ترى الرجل من أمة الإسلام يملك محلاً لتسويق أشرطة الفيديو ، التي سجل عليها بالصوت والصورة الأغاني الخليعة ، والأفلام الماجنة ، والتمثيليات السخيفة ونحوها مما تفرزه دور الفساد ، وعاهرات الشرق ، وداعرات الغرب ، من الرذيلة والعفن ، بأصوات ناعمة ، وأجساد عارية ، وكلمات داعرة ، وأزياء فاتنة .

تُسوَّق بأموال المسلمين ، وتُسمع في بيوت المسلمين ، ويبيعها ويشتريها المسلمون .

فإن شئت صوتاً ، وإن شئت صوتاً وصورة ، يعكف عليها الشباب ، وتسهر عليها البنات ، وتلتف حولها الأسرة ، فأي فساد بعد هذا ...؟ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم/ ٥٩-٦٠] .

وآخر يبيع آلات اللهو والطرب والموسيقى ، البائع مسلم ، والمشتري مسلم ، والمغني والسامع مسلم .

إن هذا ينخر في كيان الأمة أكثر مما يؤمله أعداؤها .

ألا ما أخسر البضاعة ... وما أخسر المتاجر فيها ... وبئس الطرب والمطرب : ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون/ ١١٥] .

إن العزف والغناء حرام في شرع الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان/ ٦] .

وقد صح عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم كابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما تفسير (لهو الحديث) بالغناء .

وقال النبي ﷺ : « ليكوننَّ من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحريرَ والخمر والمعازف » أخرجه البخاري [1] .

ولم يرخص الرسول ﷺ في الغناء إلا في حالات خاصة كالعرس والعيد ، وفق الضوابط الشرعية التي وردت في الأحاديث المروية ، خالياً من الفحش والبذاءة ومن الزور والباطل .

فإباحة الشريعة للغناء والدف في العرس لهدف سام ، وغرضٍ شريف ، للفصل بين النكاح الحلال ، والنكاح الحرام : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء/ ١١٥] .

والرخصة في الغناء واللهو في العيد بشروطه ، سببه أنه يوم فرح عام هو يوم العيد .

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً (٥٥٩٠) ووصله أبو داود (٤٠٣٩) .

قال النبي ﷺ : « إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا » متفق عليه [1] .

فأين هذه الرخصة المقيدة بزمانها ومكانها وألفاظها ، من السهرات الحمراء ، والمراقص الماجنة ، والأجساد العارية ، والأغاني الخليعة ، التي تُنتهك فيها الأعراض ، ويُهدر فيها الشرف ويُنخر فيها الطهر ، والعفاف : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ/ ٢٠] .

إن فِرق الغناء والرقص والتمثيل قد لوثت بيئة المسلمين ، وأفسدت شبابهم ، وفرقت أسرهم ، وأوقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وصدتهم عن ذكر الله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنعام/ ٣١] .

فلله كم يصرف من الأموال في شراء هذه الأفلام ...! وكم يهدر من الأوقات في سماعها ورؤيتها ...! وكم أفسدت من البيوت وسببت من الجرائم ...! : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد/ ١٦] .

فهل تيقنّا خطر المصيبة ...؟ وإذا تيقنّا فهل نستبدل السيئة بالحسنة ... والرذيلة بالفضيلة ... والشر بالخير ... اللهم اهدنا ... ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة/ ١٥-١٦] .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل وارزقنا اجتنابه .

ألا ما أخطر الأمر : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الممتحنة/ ٤-٥] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٩٥٢) ، ومسلم برقم (٨٩٢) .

الخمــــر

لقد أكرم الله الإنسان من بين سائر المخلوقات بالعقل الذي يعرف به ربه ومعبوده ، والخمر إنما تغطي هذا العقل ، وتكون سبباً للعداوة والبغضاء ، والصد عن ذكر الله .

فكيف يرضى ذو العقل أن يعيش كالأنعام بلا عقل ؟ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف/ ١٧٩] .

رأيت رجلاً وأسرته قد ولوا وجوههم نحو البحر ، وأداروا ظهورهم نحو القبلة ، زجاجات الخمر بين أيديهم ، والمؤذن يناديهم ، وهم في سكرهم يعمهون وعن الصلاة غافلون ، فلا الصلاة أدوا ، ولا العقل حفظوا ، ولا بمعصيتهم استتروا : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة/ ٧٤] .

فقلت : واه لأسرة هذه حالها ، أتنكأ عدواً ، أو تعلم جاهلاً ، أو تربي جيلاً ، أو تشيد بناءً ، أو تزرع حقلاً ، أو تحرس ثغراً ...

واه للساعات التي تمضي بلا عمل للدين أو للدنيا ، وإنما في اللهو واللعب والسكر .

قال الخليل بن أحمد : أيامي أربعة : يوم ألقى فيه من هو أعلم مني فأتعلم منه ، فذاك يوم فائدتي وغنيمتي ، ويوم ألقى فيه من أنا أعلم منه فأعلمه ، فذاك يوم أجري ، ويوم ألقى فيه من هو مثلي فأذاكره ، فذاك يوم درسي ، ويوم ألقى فيه من هو دوني ، وهو يرى أنه فوقي ، فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران/ ٧٩] .

لو دخلت محلاً تجارياً في بعض ديار الإسلام لرأيت فيه الأطعمة نباتية وحيوانية ، والألبسة صيفية وشتوية ، وأشرطة القرآن ، وفي الجانب الآخر زجاجات الخمر ، وعلب السجائر ، والمجلات العفنة ، والصور الخليعة ، وأشرطة الفيديو القذرة .

وهكذا تخلط الأمة بين الطيب والخبيث ، والحسن والقبيح ، لقد شاركت الشيطان ، وروجت بضائعه ،

فساءت أحوالها وتتابعت أحزانها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ [البقرة/ ٢٠٨] .

إن الله أكرم أمة الإسلام برسول أحل لها الطيبات ، وحرم عليها الخبائث : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف/ ١٥٧] .

إن الخمر أم الخبائث ، ومفتاح كل شر ، وهي محرمة في شرع الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ ﴾ [المائدة/ ٩٠-٩١] .

وقال النبي ﷺ « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » أخرجه مسلم [(١)] .

وأخبر النبي ﷺ أنه أتاه جبريل عليه السلام فقال : « يا محمد إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومستقيها » أخرجه أحمد [(٢)] .

فلله كم أفسدت من العقول ...؟ وكم أهدرت من الأموال ...؟ وكم سببت من الجرائم ...؟ .

كم حانات الخمور في العالم ؟ وكم مصانع الخمور في العالم الإسلامي ؟ وكم صالات الخمور والمراقص في فنادق المسلمين ؟ وكم يؤمها من الرجال والنساء ؟ وكم يحصل بسببها من الفساد والرذيلة ؟ : ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ﴾ [الأعراف/ ١٥٥] .

اللهم احفظ عقولنا ، ويسر أمورنا ، واختم بالصالحات أعمالنا .

اللهم اهدنا واهد بنا ، واجعلنا سبباً لمن اهتدى .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٠٠٣) .

(٢) حسن/ أخرجه أحمد برقم (٢٨٩٧).

حلــق اللحيــة

إن الله خلق الإنسان ، وبيّن له المنهج الذي يسير عليه في شكله ومظهره ومطمه ومشربه وعباداته ومعاملاته : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل/ ٨٩] .

واللحية زينة الرجل المسلم ، أبقاها الرسول ﷺ ، وأمر بإعفائها وإكرامها ، وأمر بإحفاء الشارب .

لقد أضل الشيطان كثيراً من الناس ، وزيَّن لهم سوء أعمالهم ، فأمرهم بحلق ما أمروا بإبقائه ونهاهم عن حلق ما أمروا بحلقه ، ففعلوا وأطاعوه ، مع أنه يدعوهم إلى عذاب السعير : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ [النساء/ ١١٨-١١٩] .

رأيت رجلاً مفتول الساعدين ، صلى في المسجد مع المسلمين ، ثم خرج إلى صالون الحلاقة ، وهناك جلس بين يديه رجلٌ ، فأخذ يَحلق بيده التي يتشهد بها لحية هذا الرجل ، ويسرح شاربه .

ثم أخذ الأجرة ، وقدم التهنئة (نعيماً) فأجابه صاحبه (جميعاً) ، ثم خرج وتلاه آخر وثالث ورابع إلى وقت الصلاة الأخرى .

فقلت : وا أسفاه ... أهكذا تموت الصلاة خارج المسجد فلا يبقى لها أثر ...؟ وا حسرتاه ... أهكذا تُنتهك أحكام الشرع جهراً بلا حياء ، وتصير نعيماً للجميع ...؟ أهكذا يُستحسن القبيح ، ويتعاون أفراد الأمة الواحدة على الإثم والمعصية ...؟

إن الصلاة صلة بين العبد وربِّه ، يُسلم فيها العبد نفسه لخالقه ، فيكبره ، ويحمده ، ويخضع له ، ويطيع أمره ، ويجتنب نهيه ، ويسأله حاجته ، ثم يقدم التحية له .

ومن هنا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت/ ٤٥] .

فأي أثر بقي من الصلاة عند من يحلق لحيته ، ويعصي الله ورسوله بين خلقه.

لقد تسربت إلى مجتمعنا الإسلامي عاداتٌ وتقاليد لا يقرها الشرع كتقصير اللحى ، أو حلقها ، وحُسِّنت للناس من قِبل شياطين الإنس والجن ، حتى انخدع بها وتجرأ على حلقها الوجيه والعامي والشريف والوضيع ، والكبير والصغير ، جهراً لا سرّاً ، عمداً لا سهواً : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر/ ٨] .

ولقد طابت نفوس بعض الناس بحلقها ، حتى لا تكاد تجد مجتمعاً في وزارة أو مدرسة ، أو شارع أو مسجد إلا وتجد حالق اللحية يواجهك أينما توجهت ، وحيثما حللت ، وهذه مصيبة .

فإذا ما علمت أن بعضهم يتخذ من يوم الجمعة أفضل الأيام موعداً لحلقها ، عَرَفْت إلى أي مدىً وصل عداء السنن ، وطاعة الشيطان ، وتلاعبه بالعباد : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور/ ٦٣] .

وأعظم من ذلك أن صار حلق اللحية مظهراً جمالياً عند البعض ، يُتفقد كل وقت فلا يشهد جمعة أو عيداً ، أو حفلاً ، أو زواجاً إلا بعد حلق لحيته : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج/ ٤٦] .

إن حلق اللحية حرام في شرع الله ، ومعصية لله ورسوله ﷺ : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء/ ١١٥] .

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « خالفوا المشركين ، وفروا اللحى ، وأحفوا الشوارب » متفق عليه [1] .

---

(١) **متفق عليه** ، أخرجه البخاري برقم (٥٨٩٢) ، ومسلم برقم (٢٥٩) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « جزوا الشوارب ، وأرخوا اللحى ، خالفوا المجوس» أخرجه مسلم [1] .

وقد ورد النهي عن حلق اللحى ، والأمر بإعفائها وتوفيرها في أكثر من اثني عشر حديثاً عن رسول الله ﷺ بروايات مختلفة « أعفوا ، أوفوا ، أرخوا ، أرخو ، وفروا » معناها كلها تركها على حالها ، وقد جاءت هذه الروايات الصحيحة بصيغة الأمر ، والأمر للوجوب ولا صارف له هنا .

وقد قال النبي ﷺ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » متفق عليه[2] .

بل اهتمامه ﷺ بتوفير لحيته طول عمره ، وصحابته الكرام رضي الله عنهم ، دليل واضح على وجوب إعفاء اللحية ، وتحريم حلقها ، فلماذا نخالف أمره ، ونترك الاقتداء به : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٢١] .

إن حلق اللحية جهرٌ بالمعصية ، وقد قال النبي ﷺ : « كل أمتي معافى إلا المجاهرون » متفق عليه [3] .

إن في حلق اللحية تشبهاً بالكفار ، وقد قال النبي ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » أخرجه أحمد وأبو داود [4] .

إن في حلق اللحية مخالفة للفطرة، وقد قال النبي ﷺ : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغَسْل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء » أخرجه مسلم [5] ، والعاشرة المضمضة في حديث آخر .

واهٍ لعقلٍ لا يفكر ، وقلبٍ لا يتذكر ولا يخاف ولا يستحي من ربه : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة/ ٧٤] .

لقد ضحك الشيطان من أكثر الخلق ، وجعلهم من جنوده المطيعين له ، يرغبهم في المعاصي ، وينفرهم من الطاعات .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠) .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٢٦٩٧) ، ومسلم برقم (١٧١٨) .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٦٠٦٩) ، ومسلم برقم (٢٩٩٠) .

(٤) **حسن** / أخرجه أحمد برقم (٥١١٤) ، وأبو داود برقم (٤٠١٣) .

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٦١).

ألست ترى الذي يحلق لحى الناس مسلم ، ومن تُحلق لحيته مسلم ، هذا يحلق بيده ، وذاك يدفع من جيبه .

والكل شريك في معصية الرحمن ، وشريك في طاعة الشيطان : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس/ ٦٠-٦٢] .

إن الرجل حقاً من يخرج بنفسه وشكله من نعومة الأنوثة إلى فحولة الرجولة ، ويترك ما يحب الشيطان إلى ما يرضي الرحمن .

حلق اللحية طاعة أم معصية ؟ لا أحد يجرؤ على القول بأنه طاعة ، فلم يبق أن يقال إلا أنه معصية ، لما ورد فيها من الأحاديث التي أمرت بإعفائها وتوفيرها : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر/ ٧] .

وما جزاء المعصية لله ورسوله ؟ قال الله ﷻ : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء/ ١٤] .

إن اتباع هوى النفس ، وخطوات الشيطان ، وعادات ما أنزل الله بها من سلطان إذا اجتمعت على العبد زينت له سوء عمله ، وأوردته عذاب السعير : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان/ ٢١] .

واهٍ لشباب الإسلام ... شعر اللحية يُحلق ويُلقى في المزابل ... وشعر الشارب يُؤذي بطوله كل آكل وشارب .

فهل علمنا أن ذلك معصية ؟... وإذا علمنا فهل نكرم ما أكرمه رسول الله ﷺ ونهين ما أهانه ؟ ... نسأل الله أن يهدينا ويوفقنا إلى ما يحب ويرضى ...

أكـــل الـربـــا

لقد أكرم الله الإنسان بعقل يفكر به ، ويد يعمل بها ، ومنهج يسير على هديه .

والربا كسب خبيث لا بركة فيه ، ذلك أنه يؤدي في النهاية إلى حبس الأموال في يد فئة قليلة من المرابين ، تستعبد الناس وتتحكم في مصائرهم .

وقد أحل الله لنا البيع لما فيه من البركة ، وحرم علينا الربا لما فيه من الظلم والفساد والاستبعاد .

رأيت شاباً رُزق فطنة وذكاءً ، وشرفاً ومالاً ، وأبت عليه نفسه والشيطان إلا أن يعمل في بنك ربوي ، مقابل مرتب يُغرف له من نهر من دم ، فيأكل الربا ، ويشهد عقود الربا ، ويدعو إلى الربا ، ويؤكِّل غيره الربا ، ويكتب عقود الربا ، في ظلمات بعضها فوق بعض .

قد جمع لنفسه الشر من أطرافه ، وحارب الله ورسوله ، وأطاع الشيطان : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء/ ٣٨] .

فقلت : وا أسفاه ... أتراه يجهل الحكم في هذه المسائل ؟ أم زين له الشيطان عمله ، ورضي لنفسه أن يحارب الله ورسوله ...؟

إن الله فصل في قضية الربا بقوله سبحانه : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة/ ٢٧٥] .

فأيُّ بيان بعد هذا ...؟

إن الربا كسب خبيث محرم ، وسحت لا خير فيه ، ومعصية لله ورسوله ، وسبب للإفلاس ، وموجب لِلَّعن من الله ورسوله ، فكيف تجرأ البعض منّا على أكله أو كتابته أو الشهادة عليه ؟

إن أكل الربا سبب لحرب من الله ورسوله ، وكفى به خطراً على الفرد والأمة .

ومن الذي سيثبت أو ينتصر في حرب ضد الله ورسوله : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة/ ٢١] .

إن أكل الربا حرام في شريعة الإسلام بأي صورة كان ، أخذاً وعطاءً ، كتابةً وشهادةً ؛ لما فيه من ظلم الناس ، وأكل أموالهم بالباطل ، وصرفهم عن فعل الخير من إحسان ، أو قرض حسن ، أو إنظار معسر .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٧٨-٢٧٩] .

وعن جابر ﷺ قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه وقال : « هم سواء » أخرجه مسلم [1] .

إن البنوك الربوية زحفت إلى ديار الإسلام بأنظمتها وقوانينها ، حتى أصبحت تضاهي المساجد كثرة ، وتنافس المحلات التجارية زبائن .

وماتت القلوب حتى صار دخول المسجد ودخول البنك الربوي على حد سواء ... فساءت أحوال الأمة ... وقلَّت البركة ، وكثر الظلم ؛ لأنها خالفت منهج الله ، وحاربت أحكام الله ورسوله .

فأي خسار للأمة بعد هذا ...؟

والمؤسف أن أموال المسلمين تستثمر عن طريق هذه البنوك الربوية ، والذي يكتب عقد الربا مسلم ، والذي يأكل الربا مسلم ، والذي يؤجر البنك الربوي مسلم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران/ ٨] .

لقد أحل الله البيع لأنه كسب طيب ، وحرم الربا لأنه كسب خبيث ، يمحقه الله في الدنيا ، ويعذب صاحبه في الآخرة : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٧٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم/ ٥٩] .

غي واد في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره ، أعد الله ذلك الوادي للزاني المصر على الزنا ، ولشارب الخمر المدمن عليه ، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً ليس منه .

فهل نقرأ كتابَ ربِّنا ؟ وإذا قرأنا هل نتدبر ؟ وإذا تدبرنا هل نعمل ؟ نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل .

(١) أخرجه مسلم برقم (١٥٩٨) .

أمة كريمة ومصيبة عظيمة

إن أيَّ أمةٍ بلا منهج ينير لها الطريق ، ويمهد لها السبيل ، تفقد كثيراً من خصائص الإنسانية ، وتظل ترتع في الشهوات ، وتتخبط في الرذائل والآثام ، تخلط الطيب بالخبيث وتمزج الحسن بالقبيح ، لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر منكراً ، تعطلت لديها ملكة العقل والسمع والبصر ، فتردت إلى أقل من رتبة الحيوان : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان/ ٤٤] .

وهذه الأعاجيب في سلوك البشر لا غرابة فيها ، فإن أي أمة بلا منهج يضل أفرادها هكذا : ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد/ ١٢] .

لكن الغريب أن يزحف هذا السلوك الذي يخلط الطيب بالخبيث ، ويمزج الحسن بالقبيح ، إلى أمة أكرمها الله بمنهج فيه تبيان كل شيء ، من حلال وحرام ، وآداب وأخلاق ، وآيات ومعجزات ، وعبادات ومعاملات ، وأكرمها الله برسولٍ بلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، يدعو إلى كل خير ، ويحذر من كل شر ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران/ ٦٤] .

واعجباً لأمة الإسلام ... ربّها نور : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور/ ٣٥] .. وكتابها نور : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن/ ٨] .. ونبيها نور : ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة/ ١٥] .

واعجباً لها ، ربها نور ، وكتابها نور ، ونبيها نور ، تعيش في الظلمات : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

إن الحق واحد ، والباطل متعدد ، والنور واحد ، والظلمات متعددة ، فهل يستويان ...؟ كلا : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر١٩-٢٠] .

هل يجتمعان ...؟ كلا : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء/ ١٨] .

إن الليل لا يجتمع مع النهار ، ولا النور مع الظلام ... فكيف أباح البعض منا لنفسه أن يجمع بين الحق والباطل ، وبين النور والظلمات فهل يستويان ؟ كلا : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر/ ١٢] .

ألا ما أكثر الظلمات التي نتخبط فيها ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، ذكرواً وإناثاً ، عمداً لا سهواً ... الكذب ظلمة ... وقول الزور ظلمة ... والغيبة والنميمة ظلمة ... وأكل الربا ظلمة ... وأكل مال اليتيم ظلمة ... والنفاق ظلمة ... والسرقة ظلمة ... والزنا ظلمة ... وفعل قوم لوط ظلمة ... والرياء ظلمة ... والفرقة ظلمة ... والحسد ظلمة ... والكبر ظلمة ... وعقوق الوالدين ظلمة ... وإيذاء المسلمين ظلمة ... والقذف ظلمة ... وشرب الخمر ظلمة ... وتناول الخبائث ظلمة ... وقطع الطريق ظلمة ... والرشوة ظلمة ... وترك الصلاة ظلمة ... وسماع الغناء ظلمة ... والغش ظلمة ... والإسبال ظلمة ... وحلق اللحى ظلمة ... والخديعة ظلمة ... والسحر ظلمة ... ونزع حجاب المرأة ظلمة ... والتختم بالذهب للرجال ظلمة ... والإسراف ظلمة ... والصور والتصوير ظلمة ... وأذى الجار ظلمة ... والتطفيف كيلاً أو وزناً ظلمة ... والتشبه بالكفار ظلمة ... والاعتداء بغير حق ظلمة ... وكفر النعم ظلمة ... والظلم ظلمات ... وإنك لتجد هذه الصفات والأفعال كلها أو بعضها متمثلة في حياة البعض منا ، بل قد لا يكاد يسلم من بعضها أحد إلا ما رحم ربّك .

وا أسفاه ... إن مصيبتنا في التفريط واحدة ، فمقلٌ ومستكثر ... واه للظلم والظالمين : ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى/ ٤٥] .

لقد أكرمنا الله بعقل نعرف به الحق من الباطل ، ومنهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيه تبيان كل شيء ، ورسول تركنا على البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة/ ٢] .

واه لأمة الإسلام إنها بلا قرآن لا تساوي شيئاً وهي بالقرآن تساوي كل شيء : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء/ ١٠] .

لقد أكرمنا الله بنعم لا تعد ولا تحصى ، فهل انتفعنا بها ، واستعملناها فيما ينفعنا ، ويصلح أحوالنا ، ويرضي ربنا ...؟

لقد أكرمنا الله بالعقل ... فهل فكرنا به في ملكوت السموات والأرض ؟ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس/ ١٠١] .

لقد أكرمنا الله بالقلب ... فهل تدبرنا به ما ينفعنا وما يضرنا ؟

لقد أكرمنا الله بالعين ... فهل أبصرنا بها ما ينفعنا وما يضرنا ؟

لقد أكرمنا الله بالأذن ... فهل سمعنا بها الحق وأحسن القول ؟

إن تعطيل هذه النعم سبب للحرمان ، ودخول النار : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف/ ١٧٩] .

لقد ساءت أحوال البعض منَّا ، وتبدَّلت المفاهيم ، وعميت البصائر ، وانتكست بعض القلوب ، حتى صارت لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً ، ترى الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، والخير شرّاً والشرَّ خيراً ، والحقَّ باطلاً ، والباطل حقاً : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٠٤] .

أعمال كالسراب ، وقلوب من التقوى خراب ، وذنوب بعدد الرمل والتراب .

واهٍ لأمة ... تتلو كتاب الله ، تقيم حروفه ، وتضيع حدوده .

واهٍ لأمة ... تهتم بالشكل ، وتغفل عن الجوهر .

ألا إن كتاب الله إنما أنزل للإيمان به ، والعمل به ، بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، والوقوف عند حدوده ، والاعتبار بما فيه من القصص ، والتفكير في آيات الله الكريمة ومخلوقاته العظيمة : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد/ ٢٤] .

ماذا أصاب الأمة ؟ ما الذي صرفها عن كتاب ربها ، وهدي نبيها ؟ لقد غشيتها فتنة تدع الحليم حيران : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق/ ٢٠-٢١] .

أما جعلها الله خير أمة أخرجت للناس رسالتها الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران/ ١١٠] .

فما بالها اليوم نسيت رسالتها ، وسبب خيريتها ؟ ... فلا تأمر بالمعروف ، ولا تنهى عن المنكر .

بل زاغت أبصارها ، وعميت قلوبها ، حتى صارت لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر منكراً ، ونشأ فيها من يرى المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .

وساءت أحوالها حتى قام فيها من يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، لا حياء يمنعه ، ولا قوة تردعه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٠٠-١٠١] .

واهٍ لأمة الإسلام ... أليست قد وصفها الله وأكرمها بالوحدة والأخوة والمحبة حين قال : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء/ ٩٢] .

وحين قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات/ ١٠] .

وحين قال رسوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه [1].

فما الذي دهاها اليوم حتى أصبحت أمماً شتى ، تمزقها الفرقة والأهواء ... والعداوة والبغضاء ؟ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٥٩] .

واعجباً لأمة الإسلام ... أما وصفها الله بالوسطية حين قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة/ ١٤٣] .

فما بالها اليوم تركت الوسط ، وجنحت ذات اليمين ، وذات الشمال ، ومالت إلى الغرب مرة ، وإلى الشرق مرة وما اتجهت إلى الله مرة : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة/ ٥٠] .

إنه لا سعادة لها إلا بالإسلام ، وما سواه مردود غير مقبول : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران/ ٨٥] .

واعجباً لأمة الإسلام ... أما أكرمها الله بكتاب فيه تبيان كل شيء حين قال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (١٣) ، ومسلم برقم (٤٥) .

﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل/ ٨٩] .

فما بالها اليوم أعرضت عن كتاب ربها ، ومصدر عزها ؟

إن أول كلمة من دستورها « اقرأ » وهي لا تُحسن أن تقرأ ، وإن قرأت لا تُحسن أن تفهم ، ولو فهمت لا تُحسن أن تعمل : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد/ ٢٤] .

واعجباً لأمة الإسلام ... أما أكرمها الله برسولٍ هو خير الرسل ، تركها على البيضاء ليلها كنهارها ، رحيم بها حريص عليها : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة/ ١٢٨] .

فما بالها اليوم ضلَّت الطريق فلا تأخذ بسنَّته ولا تنتفع بهديه ؟ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب/ ٢١] .

لقد ساءت حال الأمة حتى فقدت وعيها ، فلا هي تشعر أو تستشعر عدوها من صديقها ، وما ينفعها مما يضرها ، لأنها ضلت الطريق ، وعميت عن الحق ، فصار عدوها يأكل خيراتها ، ويفسد دينها ، ويعبث بأخلاقها : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة/ ٢١٧] .

لقد تسرب الداء إلى هذه الأمة فمزق صفوفها ، وأزاحها عن مكانها ، وشلَّ قواها ، حتى صارت تابعة لا متبوعة ، سامعة لا مسموعة ، مأمورة لا آمرة ، مقلدة لا مجتهدة ، مستهلكة لا منتجة ، لقد أنزلتها ذنوبها من القمة إلى القاع .

تؤمن بالله ولا تطيع أمره ، وتقرأ كتاب الله ولا تحسن فهمه ، وتحب رسول الله ولا تتبع هديه ، وتكره الشيطان وتطيع أمره .

فأيُّ مرض بعد هذا ...؟ وأيُّ ضلال بعد هذا ...؟ وأي ظلم وفساد بعد هذا ...؟ .

فهل عرفنا بعد هذا أننا مصابون ؟... وإذا علمنا أننا مصابون فهل تدارسنا من أين جاءت الإصابة ؟ ...

هل مصيبتنا في عدم وجود الدواء الذي يجتث جذور البلاء والفساد في الأمة ؟

أم مصيبتنا في عدم توفر الطبيب الماهر الذي يشخص الداء ، ويصف لصاحبه نوع الدواء كماً وكيفاً ؟

أم أن المريض نفسه يرفض الدواء ولا يقبل العلاج ؟

حقاً إن العلة تدور بين هذه الأمور الثلاثة ولا تتجاوزها بحال من الأحوال ، فلننظر من أين أصيبت الأمة ... لنعرف كيف تنجو الأمة .

من أين أصيبت الأمة

هل مصيبة الأمة في عدم توفر الدواء الناجع ...؟ أم مصيبتها في عدم توفر الطبيب القادر على التشخيص ...؟ أم مصيبتها أنها لا تقبل العلاج ...؟

أما الأول فلا ريب فيه ، إذ أن الدواء موجود ونتيجته مضمونة ، إذا أحسنا الأخذ منه ، والعمل به : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة/ ١٥-١٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء/ ٨٢] .

قرآن فيه تبيان كل شيء ، وتفصيل كل شيء ، من أخبار الأوَّلين والآخرين ، وخلق السموات والأرضين ، فيه النور والهدى ، والرحمة والشفاء ، فهلا انتفعنا به ؟

كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت/ ٤١-٤٢] .

كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تحدى الله به الثقلين أن يأتوا بمثله فما استطاعوا ولن يستطيعوا ولو تعاونوا : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء/ ٨٨] .

ولما كان الخلق عرضة للأمراض أنزل الله لهم شفاءً ، ويسره لهم ، وتكفل بحفظه لهم فلا يفقدونه أبداً : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر/ ٩] .

فالقرآن شفاء من أمراض الشهوات ، وأمراض الشبهات : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت/ ٤٤] .

هذا عن الدواء والشفاء ، فماذا عن الطبيب والمريض ؟

إن المشكلة تكمن فيهما ... طبيب مريض ، ومريض يزعم أنه سليم ، فمتى يلتقيان ؟... وإذا التقيا فهل يستفيدان ويفيدان ، ليزول البلاء ، ويحصل الشفاء .

ألا ما أكثر المرضى ، وأقل الأطباء !

هل استشعر الطبيب أنه مسئول عن هؤلاء المرضى ، يدعوهم إلى الخير ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ...؟ أمَا قال الله ﷻ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٠٤] .

هل اطمأن الطبيب إلى عظمة رسالته ليعمل بإخلاص وتفان ...؟ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت/ ٣٣] .

هل جَنَّد العالم نفسه لدعوة الأمة إلى الخير ، ونقلها من الظلمات إلى النُّور ... ومن الفساد إلى الصلاح ... ومن الجهل إلى العلم ... ومن الشَّكِّ إلى اليقين ... ومن الاعوجاج إلى الاستقامة ؟ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف/ ١٠٨] .

وقال النبي ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حمر النّعم » متفق عليه [(١)].

هل تنبه العالم إلى أنه مسئول أمام ربِّه عن علمه ماذا عمل به ...؟ : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران/ ٧٩] .

هل عمل به ؟ هل بلَّغه أم كتمه ...؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة/ ١٥٩-١٦٠] .

ألا ما أعظم رسالة العالم ... وما أعظم منزلته : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر/ ٩].

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٩) ، ومسلم برقم (٢٤٠٦) .

فهل عرف العالم هذه المنزلة وقام بحقها ...؟ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل/ ١٢٥] .

إن العلماء ورثة الأنبياء ... والأنبياء ورَّثوا العلم وعلَّموه ... فهل تعلَّم العالم العلم لوجه الله ؟ ... وهل يعلِّم لوجه الله لا يرجو جزاءً ولا شكوراً إلا من ربِّه ، هذا منهاج الأنبياء : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود/ ٢٩] .

إن حسن الخلق يعدل درجة الصائم القائم ... فهل تحلى العالم بحسن الخلق في كلامه ... في تقريره ... في تأديبه ؟... إن سوء الأخلاق في الناس مرض يزال بطريق التعريض لا التصريح ... وبطرق الرحمة والرفق لا بالتوبيخ والعنف ... فهل يتنبه العالم لذلك ...؟ : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٥٩] .

لهذا ينبغي ألا يأمر بالمعروف ، ولا ينهى عن المنكر ، إلا من كان فيه ثلاث خصال :

أن يكون عالماً بما يأمر به ، عالماً بما ينهى عنه ، وأن يكون عدلاً فيما يأمر به وينهى عنه ، وأن يكون رفيقاً فيما يأمر به وينهى عنه .

إنه لا خير في علم لا يصدقه عمل ... فهل عمل العالم بعلمه؟ ... فلا يأمر بالشيء إلا ويكون أول من يفعله ... ولا ينهى عن شيء إلا ويكون أول من يبتعد عنه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف/ ٢-٣] .

إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

ألا ما أخطر التسرع في الفتيا .. فهل راقب العالم ربّه في فتواه ؟... فإن علم حقاً أفتى ... وإن شكَّ قال لا أدري ... وإن جهل أحال على غيره : ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٦] .

إن العلم يورث الخشية والتقوى ... فهل ظهرت آثاره على العالم في كلامه وهيئته ، وسيرته وحركته ، ومسكنه ومركبه : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر/ ٢٨] .

فلنخلص النية لله ... ونتحلى بحسن الخلق ... ونعمل بما علمنا ... ونتقي الله ونخشاه ...

ونحدث الناس بما يعرفون : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة/ ٥] .

اللهم اهدنا سواء السبيل .

هذا عن الطبيب ... فماذا عن المريض ...؟

ولعلّنا نتساءل :

ما بال هذا المريض لا يقبل علاجاً ، ولا يستسيغ دواءً ...؟

كيف رضي لنفسه أن يعيش سقيماً لا صحيحاً ، ضالاً لا مهتدياً ، جاهلاً لا متعلماً ...؟

أشعر أنه مريض ؟... أعرف أنه تائه ؟... أأحسَّ أنه غافل ؟... كلا ... إنه لا يشكو شيئاً من ذلك .

وهذه هي المصيبة !... أعرف ربّه حقّاً ؟... أعرف نبيّه حقّاً ؟... أعرف نفسه حقّاً ؟

تالله لو عرف ذلك حق المعرفة لوجدته بإذن الله طائعاً لا عاصياً ، مؤمناً لا فاسقاً ، مستقيماً لا منحرفاً : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال/ ٢-٤] .

إن الجهل يعالج بالعلم لكن أجهل الجهل أن يجهل الإنسان أنه يجهل ، وهو ما يسمى بالجهل المركب الذي لا يلتفت صاحبه إليك ، أو يرغب في الحديث بين يديك ، ويراك جاهلاً بين يديه : ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر/ ٢٢] .

قد يقطع الحديدُ الحجرَ ... وقد تذيب النارُ الحديدَ ... وقد يطفئ الماءُ النّارَ ، لكن هذا الصنف المريض من الناس وهو لا يشعر ، قد أغلق على نفسه أيَّ باب تَهب منه رياحُ الحقّ ، أو تمطرُ منه سحائب الرحمة ، أو تُشرق منه شمس الفضيلة .

لقد أسلم نفسه للشيطان ، وتملكته الشهوة والهوى حتى صار لا يعرف معروفاً فضلاً أن ينكر منكراً ، يرى الصديق عدواً والعدو صديقاً ، والحق باطلاً والباطل حقاً ، فأيُّ جهل بعد هذا ؟ وأيُّ فتنة بعد هذا ؟ بل أي ضلال بعد هذا ؟ : ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص/ ٥٠] .

قال النبي ﷺ : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة

سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً ، كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، إلا ما أُشرب من هواه » متفق عليه [1].

هذا الصنف المريض من الناس أتراه نادراً جداً حتى لا يكاد يعرف...؟ أم هو كثير جدّاً تراه أمام ناظريك أينما توجهت ، وحيثما سرت ؟ ... وسواء قل أو كثر فهو موجود بيننا .

لقد اكتفى من الإسلام بشهادة أن لا إله إلا الله بلسانه ... وربما سمع القرآن يتلى ... ودخل المسجد يوماً أو جمعة أو حيناً بعد حين فهل يكفي هذا ؟ ... كلا ... إن الإسلام عقيدةٌ وشريعةٌ ، قولٌ وعملٌ ، هدي ونورٌ ، كلٌّ لا بعض ، عقيدة ومنهاج ، عبادات ومعاملات ، أخلاق وآداب ، تأمّل وتفكر : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة/ ٣] .

الدين ركنان : عبادة الحق ، والإحسان إلى الخلق ، في كل مكان وزمان وحال .

فهل أخذناه بقوة ؟... لننظر ...

إن محاسبة النفس ، والتشخيص الصادق ، يلحقك بالأصحاء أو بالمرضى ، بالأولياء أو بالأشقياء ، بالمهتدين أو بالضالين ، فسل نفسك؟؟؟.

هل تصلي وتصوم ؟... هل تؤدي الزكاة ؟ ... هل تعفو وتغفر ؟... هل أطعت الله ورسوله ؟... هل تحب الخير وأهله ؟... هل تبغض الشرَّ وأهله ؟... هل تدعو إلى الخير ؟... هل تأمر بالمعروف ؟... هل تنهى عن المنكر ؟... هل يطمئن قلبك بذكر الله ؟... هل تخاف الله وحده ؟... هل ترجو الله وحده ؟... هل أنت من المحسنين ؟... هل أنت من المستغفرين ؟... هل أنت من الذاكرين ؟ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[التوبة/ ٧١] .

ثم تسأل نفسك وتجيب ...

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٥٢٥) ، ومسلم برقم (١٤٤) .

هل أنت من الظالمين ؟... هل أنت من الكاذبين ؟... هل أنت من المنافقين ؟... هل أنت من المستهزئين ؟... هل أنت من المتكبرين ؟...هل أنت من المرائين ؟... هل تأكل الربا ؟... هل وقعت في الزنا ؟... هل قذفت أحداً ؟... هل تشرب المسكرات ؟... هل تتناول المخدرات ؟... هل ترتكب المحرمات ؟ : ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد/ ٢٥] .

بمثل هذا التشخيص تدرك أنك من الذين اتبعوا الحق ... أو من الذين اتبعوا الباطل ... أو من جند الرحمن ... أو من جند الشيطان ... أو ممن تملكته الشهوة والهوى ، فخلط بين الحق والباطل ، فانظر ما قدمت ، وماذا تعمل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر/ ١٨] .

فإن كنت من الذين اتبعوا الحق ، وأطاعوا الله ورسوله ، فهنيئاً لك بسعادة الدارين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت/ ٣٠-٣١] .

وإن كنت من الذين اتبعوا الباطل ، وعصوا الله ورسوله ، فذلك الخسار الذي لا ربح بعده ، والهلاك الذي لا نجاة بعده : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء/ ١٤] .

وإن كنت ممن يخلط بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين الحسن والقبيح ، فأنت من المرضى ... ألا ما أشد خطورة هذا المرض ...!

فهل تحب الشفاء ؟... فلتقبل الدواء من كتاب ربّك الذي قال عنه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء/ ٨٢] .

فتدبر حالك ، وانظر في شأنك ، فلكل عمل ثواب أو عقاب، ولكل عامل دار وقرار: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا

﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة/ ١٨-٢١] .

قال ابن القيم رحمه الله : إن جماع أمراض القلوب هي أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين .

ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل ، فتزول به أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك ، فمن رزقه الله تعالى فهم القرآن ، أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه كما يرى الليل والنهار .

وأما شفاؤه لمرض الشهوات ، فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ، بالترغيب والترهيب ، والتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار [1].

إن أحكام الله التي شرعها لعباده يكمل بعضها بعضاً ، فليس في الإسلام صلاة بلا صوم ، أو حج بلا زكاة ، أو أخلاق بلا آداب ، فمن صلى ولم يصم ، أو حج ومنع الزكاة أو استحل الزنا أو الربا أو الخمر ونحوها فليس من الإسلام في شيء : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة/ ٨٥] .

إن الأخلاق الإسلامية الفاضلة ليست ثوباً يلبسه الإنسان هنا وينزعه هناك ، يرتديه متى شاء وينزعه متى شاء ... بل إنها ثوابت راسخة متأصلة لازمة للإنسان ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً في البيت والمدرسة ، في المسجد والمكتب ، في الطريق والمصنع ...

وليست الأخلاق في الإسلام من الأشياء الكمالية يُنتفع بها حيناً ، وتطرح أحياناً ... فالصبر والصدق والحب والحياء والعفو والإحسان حُلل يرتديها المسلم في حياته متى ما نزعها انكشفت عورته ، وفسدت أخلاقه ، فأصبح عرياناً ، وجيفة منتنة ، بعد أن كان مسكاً تفوح

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٤.٤٥) .

رائحته ، ونوراً يشع ضوؤه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٠٨] .

لقد حرص أعداء هذا الدين على سلخ الأخلاق ، وشعائر الدين ، من حياة المسلم ، ليكون فضلةً لا قيمة له ... وقشراً لا لب له ... وصورة لا معنى لها ... يعكف على الرذيلة ... وينفر من الفضيلة ... يقول ما لا يفعل ... ويسمع ولا يستجيب ... ويذنب ولا يستغفر : ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة/ ١٠٩] .

إن الله سبحانه بيّن لنا الصراط المستقيم ، وأمرنا باتباعه والسير على هديه ، في جميع أحوالنا ... وحذرنا من اتباع السبل التي تصد عن ذكره وهديه فقال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٥٣].

فهلا سلكنا الصراط المستقيم الذي يهدي إلى الجنَّة ، وابتعدنا عن كل ما سواه من السبل العوجاء التي لا تهدي ضالاً ، ولا تشفي عليلاً ، ولا تقيم معوجاً : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة/ ١٥-١٦] .

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين : ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٤٧] .

القــرآن شفـــاء

إن العقل نعمة،والسمع نعمة ، والبصر نعمة ، والقلب نعمة ، وهذه وسائل المعرفة ، فهل أحسن المسلم الاستفادة من هذه النعم ، وأدى شكرها للمنعم ؟: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل/ ٧٨] .

إن كل واحد منَّا مسئول عن هذه النعم ، فعليه أن يستعملها في طاعة الله لا في معصيته ... فيما يحلّ لا فيما يحرم ... في الحق لا في الباطل ... في الخير لا في الشَّرِّ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٦] .

فهل نعقل؟... فإن الله يقول : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف/ ٢] .

هل نتفكر ؟... فإن الله يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس/ ٢٤] .

هل نسمع ؟... فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة/ ٢٦] .

هل نبصر؟... فإن الله يقول : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات/ ٢١] .

هل ننظر ؟... فإن الله يقول : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس/ ١٠١] .

ألا ما أعظم الخالق ، وما أعظم ما خلق.

من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والأفلاك والنجوم ، والماء والتراب ، والجماد والنبات ، والملائكة والجن ، والإنسان والحيوان ، والليل والنهار ، والرياح والزلازل ، والنار والذرات : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر/ ٦٢] .

أعلمت أحداً غير الله خلق هذه المخلوقات ...؟

هيهات .. بل لله الخلق والأمر وحده : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف/ ٥٤] .

أعلمت أحداً يقلِّب الليل والنهار غير الله ؟

هيهات بل ذلك لله وحده : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور/ ٤٤] .

أعلمت أحداً سخَّر الشمس والقمر غير الله ؟

هيهات بل ذلك لله وحده : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم/ ٣٣] .

أعلمت أحداً غير الله خلق الإنسان وصوره ؟

هيهات ذلك لله وحده : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين/ ٤] .

أعلمت أحداً غير الله يرسل الرياح ؟

هيهات .. ذلك لله وحده : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم/ ٤٨] .
أعلمت أحداً غير الله يرسل الصواعق ؟
هيهات ذلك لله وحده : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الرعد/ ١٣] .
أعلمت أحداً غير الله خلق السموات والأرض ؟
هيهات .. ذلك لله وحده : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس/ ٣] .
من الذي جعل الأرض مهاداً ...؟
من الذي جعل الليل لباساً ...؟
من الذي جعل النهار معاشاً ...؟
من الذي خلق الأنعام كلها ...؟
من الذي رفع السماء بلا عمد ...؟
من الذي يسوق السحاب ...؟
من الذي يرزق العباد ...؟
من الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ...؟
الله وحده لا إله غيره ولا ربّ سواه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾
[الأنعام/ ١٠٢-١٠٣] .
تلك آيات عظيمة محكمة ، خلقها الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ...
إن وجودها يدل على موجدها ... وعظمتها تدل على عظمة خالقها ... وقوتها تدل على قدرة خالقها ... وبقاءها وحركتها تدل على حياة خالقها ومدبرها .
فسبحان مالك الملك : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان/ ١١] .
ألا ما أعظم المُلك والمالك والمماليك ، وما أعظم الخلق والتدبير في ملكه العظيم : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران/ ٢٦-٢٧] .

رؤيــــة الخـــــالق

سألني سائل فقال : إن نعمة البصر من النعم التي أكرمنا الله بها ، إني أرى السماء وعظمتها ، والشمس وضياءها ، والنجوم وجمالها ، وأرى الأرض سهولها وجبالها ، نباتاتها وحيواناتها ، برها وبحرها ، إن خالقها لعظيم ، وقد أيقنت بوجوده ، فهل يمكن أن أراه كما رأيتها ؟

قلت : إن الله جعل هذا الكون بما فيه من المخلوقات العظيمة كالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والإنسان والحيوان ، والجماد والنبات وغيرها ، جعل كل هذه المخلوقات آيات بينات تشهد بوجوده وعظمته ووحدانيته لمن سلمت بصيرته.

وفـي كـل شيء لـه آيـة ... تـدل علـى أنـه واحـد

قال : هذا لا ريب فيه ، فهل للحديث من بقية ؟ قلت : نعم .

إن هذه العين الضيقة الصغيرة المحدودة لها حد تقف عنده ، فليس كل موجود يُرى ، فالرؤية التي نستطيعها محدودة ، وكذلك المرئي محدود .

الهواء موجود ... فهل تراه العين ...؟ كلا .

العقل موجود ... فهل تراه العين ...؟ كلا .

الروح موجودة في بدن الإنسان فهل تراها العين ...؟ كلا .

فهذه موجودة ولكنها لا تُرى وإنما تُرى آثارها فقط .

هل تستطيع أن تَرى من بالمكان المجاور ... ؟ كلا .

هل تستطيع أن تَرى الأرض بأكملها أو النجوم جميعها ... ؟ إنك لا تستطيع إلا رؤية القليل .

هل تستطيع أن تَرى الشيء البعيد ، أو الشيء اللطيف القريب ... ؟ هيهات .

هل تتحمل رؤية الشمس وجهاً لوجه في رابعة النهار ...؟ كلا .

هل تتمكن من رفع جبلٍ بيدك ، أو إدخال طنٍّ من الطعام في بطنك ، أو رؤية الهواء ببصرك ؟ لن تستطيع ، لأنك ضعيف ، وقدراتك ضعيفة ، فأنى تتحمل ذلك : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء/ ٢٨] .

إن صفات الكمال كلّها لله وحده ... وصفات الجلال كلها لله وحده ... وصفات الجمال كلها لله وحده : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه/ ٨] .

إن الله وسع كرسيه السموات والأرض ، قد استوى ربك على العرش الذي لا يساوي الكرسي والسموات السبع بالنسبة له إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، فكيف تستطيع العين المحدودة الضعيفة أن تراه أو تحيط بها سبحانه .

إن الله نور السموات والأرض : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور/ ٣٥] .

وسُئلَ رسول الله ﷺ هل رأيت ربّك ؟ فقال : « نورٌ أنَّى أراه » أخرجه مسلم [١] ، وفي الحديث الآخر: « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره » أخرجه مسلم [٢].

فهيهات أن تستطيع العين الضعيفة التي لا تصمد لرؤية قرص الشمس أن ترى الله جهرة ... ألا ما أعجب حال الإنسان ... إنه كان ظلوماً جهولاً ...

وحين سأل موسى ﷺ ربه أن يمكّنه من رؤيته ، أخبره الله ﷻ أنه لا يستطيع أن يراه ، وأمر الله موسى ﷺ أن ينظر إلى الجبل حين يتجلى الله له في تجربة عملية تؤكد ذلك فقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف/ ١٤٣] .

فهذا الجبل بصلابته وعظمته لا يحتمل تجلي الله عليه ، فكيف يمكن للإنسان أن يرى الله جهرة ببصر ضعيف لا يحتمل رؤية الشمس ! أو يتمكن من رؤية الهواء والعقل والروح ... أنَّى له ذلك ، فسبحان من : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٠٣] .

والله محيط بكل محيط ، ولا يحيط به محيط ، والله قادر على كل قادر ، فهو القادر على كل أحد،ولا يقدر عليه أحد،المحيط بكل أحد،ولا يحيط به أحد: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر/ ٦٧] .

ومن حكمة ورحمة الله بعباده أن جعل الخلق لا يرونه في الدنيا ، لأنهم لو رأوه بجلاله وعظمته لأطاعوه ولم يعصوه أبداً ، ففاتت الحكمة من التكليف بالأمر والنهي ، ولبطل أمر الثواب

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٨) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٩) .

والعقاب ، فمنعنا من رؤيته في الدنيا ، لأنه يريد أن نأتي إليه ونؤمن به ونطيعه اختياراً لا إجباراً: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف/ ٢٩] .

والملوك لا تعصى بحضرتها وفي سلطانها هيبة لها ، فكيف لو رأينا ملك الملوك !

ولكننا نراه في الدنيا بقلوبنا لا بأبصارنا ، ونرى أفعاله في مخلوقاته وملكه العظيم : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام/ ١٠٢-١٠٣] .

وإنما يراه المؤمنون عياناً في الآخرة إكراماً لهم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة/ ٢٢-٢٣].

فعلينا أن نتعرف على صفات خالقنا من خلال آياته ومخلوقاته التي تملأ الأرض والسماء ، فالإحكام في الخلق يدل على الحكيم ، والعلم يدل على العليم ، والقدرة تدل على القدير ، والنعم تدل على المنعم ، واللطف يدل على اللطيف ... وهكذا : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق/ ١٢].

فأعظم العلوم ، وأصل العلوم كلها هو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأ فعاله ، وخزائنه وملكه ، ودينه ووعده ووعيده : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد/ ١٩] .

قال : وفقك الله لقد نورت بصيرتي بهذا الحديث المختصر المفيد .

يا حسرة على العباد ، وا أسفاه على الجهل ، واهٍ لعدم التفكر والتدبر ، إن كتاب ربِّنا فيه تفصيل كل شيء .

فهل نقرأ كتاب ربِّنا ؟ إنك لا تجد الحق جليّاً إلا في آياته ومعجزاته : ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية/ ٦] .

اللهم وفقنا للعمل بكتابك واتباع سنة نبيك ﷺ ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

الفـوز والفـلاح

إن من رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[البقرة/ ٢٥٧] .

واصطفى الله رسله من البشر شرفهم بالرسالة ، واختصهم بالكرامة من بين سائر البشر : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[الحج/ ٧٥] .

وأرسل الله إلى كل أمة رسول يدعوهم إلى عبادة الله وحده : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل/ ٣٦] .

واختار الله الأنبياء والرسل من بني جنسهم ، ليكونوا قدوة حسنة لأممهم في سائر الأحوال والأحكام والأخلاق والآداب .

في العبادات والمعاملات ، في الأقوال والأعمال ، في الأكل والشرب ، في الصلاة والصيام ، في النوم والقيام ، في الزواج والجهاد وسائر الآداب : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب/ ٢١] .

والرسل والأنبياء أكمل الناس خَلقاً وخُلقاً ، وأصحهم مزاجاً ، وأبرهم قلوباً ، وأصدقهم حديثاً : قال أهل الطب : أعدل أمزجة الحيوان مزاجاً مزاج الإنسان ، وأعدل مزاج الإنسان مزاج المؤمنين ، وأعدل المؤمنين مزاجاً مزاج الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وأعدل الرسل والأنبياء مزاجاً مزاج أولي العزم ، وأعدل أولي العزم مزاجاً ... مزاج محمد ﷺ الذي كان أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً كما قال عنه ربُّه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم/ ٤] .

وسُئلَت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت : إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. أخرجه مسلم[1].

أرسله الله رحمة للعالمين : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء/ ١٠٧] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٦٤٦) .

وزكّى الله عقله وقلبه ، ولسانه وكلامه فقال : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم/ ١-٤] .

وأنزل عليه كتاباً فيه البيان والهدى ، والرحمة والبشرى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل/ ٨٩] .

فالرسول ﷺ أفضل الأنبياء والرسل وخاتمهم ، والقرآن العظيم أعظم الكتب وآخرها ، وأمة محمد ﷺ أفضل الأمم وآخرها : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران/ ١١٠] .

وقد تحدى الله بالقرآن العظيم أهل الفصاحة والبلاغة ، بل تحدى الثقلين الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، فما استطاعوا ولن يستطيعوا إلى أن تقوم الساعة : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء/ ٨٨] .

لماذا ...؟ لأنه كلام ربِّ العالمين ، كلام من أحاط بكل شيء علماً ... لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر/ ٢٣] .

نزل على الرسول ﷺ مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة ، لأنه يعالج أمور الحياة كلها بلا استثناء ، فاحتاج إلى وقت ، ليسهل حفظه وتطبيقه في مجالات الحياة كلها عقيدة وشريعة ، عبادات ومعاملات ، أحكام وآداب ، قصص وأخبار ، سلماً وحرباً ، حضراً وسفراً .

فعمل به الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ، فتحولت حالتهم وحياتهم من ذلَّة إلى عزَّة ... ومن قلَّة إلى كثرة ... ومن فرقة إلى وحدة ... ومن عداوة إلى محبّة ... بل من الشِّرك إلى الإيمان ... ومن الضلال إلى الهدى ... ومن الظُّلمات إلى النُّور : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران/ ١٠٣] .

وتحولت حياتهم من شر القرون إلى خير القرون ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة/ ١٠٠] .

وتُوفي ﷺ وقد ترك الأمة على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

فأكمل الله الدين ، وأتم النِّعمة على الأمة ، ورضي لهم الإسلام ديناً : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣] .

وبقي كتاب الله ﷻ وسنَّة رسول الله ﷺ للأمَّة يعملون بهما ، ويتمسَّكون بهديهما ، حتَّى لا يضلُّوا : ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف/ ١٧٠] .

وقال النبي ﷺ :« تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ الله».أخرجه مسلم[1].

فإن تمسَّكت بهما الأمة وإلا رجعوا إلى حال أسلافهم من أهل الجاهلية ، وتحوَّلت حياتهم وحالتهم من عِزَّةٍ إلى ذِلَّةٍ ... ومن كثرةٍ إلى قلَّةٍ ... ومن وحدة إلى فرقةٍ ... ومن محبَّةٍ إلى عداوةٍ ... ومن الإيمان إلى الكفر ... ومن الهدى إلى الضَّلال ... ومن النُّور إلى الظُّلمات : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه/ ١٢٣-١٢٦] .

وتلك سنة الله : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب/ ٦٢] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢١٨) .

لله الخلق والأمر

إن الله رضي لنا هذا الدين ، ولن يقبل منا إلا ما رضيه لنا ، وأكمله لنا : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران/ ٨٥] .

ألا إن السعادة حقّاً في الدنيا والآخرة هي في الإيمان بالله ، وتدبر كتابه ، واتباع هدي رسوله ﷺ .

لقد كثرت العلوم والمعارف في هذه الأيام ، وتوسعت الأمَّة الإسلاميّة في دراسة ثقافات الغرب والشرق وفلسفاتهم ونظرياتهم ، حتى نشأ جيل من الشباب أحاط بقسط وافر من فلسفات ونظريات وآداب الشرق والغرب ، ولا يعرف من دينه إلا ما يُبقي له اسم الإسلام فقط .

وتبعاً لذلك ظهر جيلٌ قطع صلته بربِّه ، وبدأ يَشك ويُشكِّك في الدين ، والرسول والقرآن ، ونتيجة لذلك عطل بعضهم شعائر الإسلام ، بل وصل الأمر أن بعضهم يأنف ويشمئز من ذكر الله ، ولا يجد لذة وأنساً إلا بالعكوف على ما جلبه إلينا شياطين الإنس والجنِّ من فساد وتحلل ، وشك وإلحاد ، قد دُس في المسرحيات والروايات القذرة ، والصحف الوقحة ، والأفلام العفنة ، والأغاني الماجنة ، بل في المصنوعات والأجهزة التي تدخل كل منزل ، وتواجهك في كل متجر .

فلله كم ضلَّ بهذه الوسائل ...؟ وكم أفسدت من شباب الأمَّة ...؟ وكم صدت عن ذكر الله ...؟

﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة/ ٤٩] .

سألني أحدهم بين مجموعة من زملائه فقال : لقد قرأنا القرآن ، وعرفنا سيرة الرسول ﷺ ، ونحن الآن في عصر العلم والمدنيَّة ، والعقل والتجربة ، ألا ترى كيف تقدم الغرب في مجالات الحياة صناعة وتطوراً ، حضارة ومدنية ...؟ في حديث لا ينقضي ...؟

فقلت : لقد روعتنا بعبارتك ، وكشفت عما في باطنك ، وإنما تدَرك الحوائج بالتأني ، ويحصل الخلاص بالتأمل ، فماذا يجول في خاطرك ؟ فإن الله يقول : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل/ ٨٩] .

قال : قد علمت أننا في عصر العلم والمدنيَّة ، والإبداع والتجربة ، فهل نستغني بذلك عن القرآن والسُّنَّة ، وننهل من حضارة الغرب لنلحق بركبهم ؟

فإن لم يمكن ذلك فكيف نعرف بعقولنا أن الله أرسل رسولاً ، وأنزل كتاباً ...؟ فإذا تيقنَّا ذلك فهل لذلك من ضرورة ...؟

أسئلةٌ تفوح منها رائحة الكفر ... وتتفجر منها براكين الإلحاد : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور/ ٥٠] .

فلا تهولنك هذه العاصفة من الأفكار ، فإن الإسلام ينسفها نسفاً ... فصولة الحق في ساعات تقضي على انتصار الباطل في سنوات : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة/ ٢١] .

وقال سبحانه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء/ ١٨] .

قلت : هداك الله ...

إنك بالعقل تتحدث ، وبالعقل شَرُف الإنسان ، وبالعقل أُمرنا أن نتفكر في آيات الله ... وبالعقل سوف يأتيك البيان إن شاء الله ... أتسمع ...؟ قال : نعم .

قلت : هذه السيارة التي أمامك ذات لون جميل ، ومركب مريح ... لها إطارات وإشارات ... وبها ماكينة ومحركات ... تنقلك من مكان لآخر بكل طمأنينة وراحة ...

قال: نعم .

قلت : أرأيتها بجوار بيتك جاءت بالصدفة هكذا ؟ قال : لا .

قلت : فمن جاء بها ...؟ قال : التجار .

قلت : ومن أين جاء بها التجار إلى هنا ؟ قال : من البلد الذي صنعت فيه ...

قلت : إذاً هي صناعة بشر ...؟ قال : نعم .

قلت : من صنعها ؟ قال : المفكرون والعباقرة .

قلت : مَن صَنعها أحكم صُنعها ، وأتقن شكلها ، وربط أجزاءها ...؟

قال : نعم .

قلت : ولماذا ؟

قال : حتى يستفاد منها على أتم وجه ، وتدل على عظمة صانعها وعبقريتة .

قلت : وتسير هكذا بلا أصول وقواعد للسير ...؟

قال : لا ، بل تسير وفق ضوابط وتعليمات ، لتبقى نافعة سليمة ولا تضر أحدا .

قلت : وتسير كل يوم بلا وقود ...؟
قال : لا ، بل إنها لا تسير خطوة إلا بوقود .
قلت : صوِّب إليَّ عقلك جيداً ، ولا أريد منك جواباً إلا من عقلك ...
قال : سلَ ... فقد بدأتَ حديثاً يُسمع العقل ويملأ الصدر ...
قلت : صُنعت هذه السيارة ، ووصلت إلى هنا ، وأدرك أول إنسان هنا قيادتها بنفسه من غير مهندس يبين له طريقة القيادة ... وأصول السير ... وقواعد الصيانة ...
قال : لا ... قلت : كيف ...؟

قال : إن السيارة أول ما وصلت إلينا بعث معها صانعها كتاباً بداخلها ، فيه طريقة صناعتها وتركيبها ، وطرق صيانتها ، وكيفية استعمالها ... في كتاب مفصل من عند صانعها نفسه .
وأرسل معها مهندساً خبيراً علَّمه جميع ما يلزم لها ، ليبين للناس ويفصل لهم ما في هذا الكتاب ويجيب على أسئلتهم إن أشكل عليهم شيء .
قلت : فاسمع وفقك الله وهداك ، وأنار عقلك وبصيرتك .
إن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأهبطه إلى الأرض ، ولم يتركه هملاً بلا منهج ، بل توالى إنزال الكتب ، وإرسال الرسل على البشر من عهد آدم ﷺ إلى بعثة نبينا محمد ﷺ .
أنزل الله القرآن وبيَّن فيه خلق الإنسان والمخلوقات كافَّة ، وبيَّن فيه ما ينفع الإنسان وما يضره ، وكيف يعمل ؟ وماذا يعمل ؟ وكيف يتصل بخالقه فيدعوه ويسأله ، واختار الله رسوله محمداً ﷺ ، وعلَّمه مما يشاء ، وأرسله إلى النَّاس كافَّة ، وأنزل عليه كتاباً فيه تبيان كل شيء ، فبلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وبيَّن لها كل خير ، وحذرها من كل شر ، لتسعد في الدنيا والآخرة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة/ ٢] .
قال : ولكن القرآن فيه تبيان كل شيء فيغني عن غيره .
قلت : وهل يغني الكتاب الذي في السيارة عن المهندس الذي يبيِّن كيفية قيادة السيارة لأول مرة وما يلزم لها ...قال : لا .
قلت : كيف ... ؟

قال : قد يكون في السيارة شيء لم يُفهم من الكتاب الموضح لها ، فيوضحه المهندس الخبير ، وقد يخطئ المهندس أو ينسى فيجد بغيته في الكتاب...

فكان كتاب السيارة والمهندس الخبير كلاً منهما مكملاً للآخر .

قلت : فهكذا ، ولله المثل الأعلى ، الإنسان جاهل وضعيف لا يفهم من القرآن كل شيء ، وقد يفهم البعض دون البعض الآخر ، وقد يفهم غير المراد فيخطىء ثم يهلك ، فالرسول ﷺ بشر كالناس ، كان خُلقه القرآن ، طَبَّقه على نفسه بين الأمة ، ليقتدوا به ، لئلا يستثقلوه ، ويقولوا لا نطيقه ، وسألوا وأجابهم فصلى وصلوا ... وصام وصاموا ... وجاهد وجاهدوا : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٢١] .

فالرسول ﷺ يُؤكد ما في القرآن ، ويفصِّل مجمل القرآن كمعرفة أوقات الصلاة وركعاتها وكيفيتها ، وأنصبة الزكاة ونحوها ، ويزيد أحياناً على ما في القرآن كتحريم الجميع بين المرأة وعمتها وخالتها ، وكل ذلك عَلِمَه محمد ﷺ من ربه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم/ ٣-٤] .

فكان إرسال الرسول ، وإنزال الكتب أمراً لا زماً ، وذلك لضعف البشر واختلاف مداركهم ... فالله خلق البشر وهو الذي ينظم حياتهم : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف/ ٥٤] .

قال : هذا صحيح .

قلت : ولما تعلَّم الصحابة رضي الله عنهم من الرسول ﷺ رسالة ربِّه ، وفقهوا في دينهم ، وعرفوا ربّهم ومعبودهم وما يجب له ، انتقل الرسول ﷺ إلى رحمة رَبّه ، حيث كَمُل الدين ، وظهر في الأمة علماء ورثوا علم الأنبياء

يهدون الأمة إلى دين الله إلى أن تقوم الساعة ، كما أن المهندس الخبير يرحل بعد أن يؤدي ويبيِّن للناس ما أُمر به ، فيرحل بشخصه ، ويبقى علمه تستفيد منه الأمة .

ثم قلت : أيهما أعظم صناعة السيارة ، أم خلق الإنسان ؟

قال : لا يستويان ، فالإنسان في خَلقه آيات وعجائب : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات/ ٢١] .

قلت : فاعلم أن عظمة المصنوع تدل على عظمة الصانع .

قال : فما بال الإنسان الذي خلقه الله قد ساءت حاله وتردت ؟ فتارة يقتل ، وتارة يظلم ، وتارة يسرق ، وتارة يزني ، وتارة يكذب ، وتاره يفسد .

قلت : هذا عين الحكمة ...

قال : كيف ...؟

قلت : حينما تعطب سيارتك ألا تتصل بالمصنع الذي صنعها ، والكتاب الذي يشرح تركيبها وكيفية سيرها ، لتعود إليك من المصنع نافعة سليمة من كل عيب .

قال : بلى .

قلت : إن سبب ذلك الغفلة عن الله ودينه واليوم الآخر ، فالغافل ضعف إيمانه بربه ، فثقلت عليه الطاعات ، وخفت عليه المعاصي ، فانتقل من جند الرحمن إلى جند الشيطان ، ومن الصلاح إلى الفساد ، ولو عاش في الجو الإيماني ، لخفَّت عليه الطاعات ، وثقلت عليه المعاصي .

والشيطان في الجو الغافل أقوى من الأسد ، والشيطان في الجو الإيماني أضعف من البعوضة ، فكن مع الذاكرين لا مع الغافلين ، لتطيع ربك ، وتعصي عدوك : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف/ ٢٨] .

فعلى الإنسان الذي ساءت حاله وتردت أن يتصل بخالقه الذي بيده كل شيء ، ويَعرض نفسه وسلوكه على كتاب ربه ، وسنَّة نبيه ﷺ ، وسيجد فيهما الهدى والشفاء ، وسيرى فيهما أن القتل بغير حق حرام ، وأن الظلم حرام ، والسرقة حرام ، والزنا حرام ، والكذب حرام ، فليعتزل هذه الصفات وأمثالها من مساويء الأخلاق ، ويطيع الله ورسوله ليعيش عيشة كريمة سعيدة في الدنيا ، ويفوز بالجنّة في الآخرة : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل/ ٩٧] .

قال : نَوَّر الله قلبك ، لقد نورت قلبي وعقلي ، وماذا بعد وفقك الله ...؟

قلت : خلوة ساعة فيما بينك وبين الله ، وتفكرك في مخلوقاته ، تنقلك طائعاً راغباً من الشك إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن المعاصي إلى الطاعات .

ثم قلت : لما أسكنك الله في أرضه ، أيسرّك أن يتركك بلا أصول وقواعد وأحكام تسير عليها في هذه الحياة ، فتكون كالبهائم والسباع ، جهل وشهوة ، وظلم وقسوة : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى

ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٦٤] .

قال : سبحان ربي ، قد أحاط بكل شيء علماً إن ربي لرؤوف رحيم .

قلت : وهذه السيارة ، من خَلَق الإنسان الذي صنعها ؟ ومن خلق الفكر الذي اخترعها ؟ ومن خلق القدرة التي شكلتها ؟ ، ومن خلق المادة التي صنعت منها ؟

قال : لا شك أنه الله : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات/ ٩٦] .

قلت : وهل تسير سيارة بلا وقود ؟ قال : لا ...

قلت : فإن الله خلقك ، ووهبك من رزقه ، فأنت لا تأكل إلا من رزقه بلا ثمن ، ومن أكرمك وجبت طاعته ، فأطعه واعبده : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه/ ١٣٢] .

وصانع السيارة يطلب ثمناً لها ... ولا تمشي إلا بوقود يُشترى لها ...

لقد أكرمك الله في الدنيا برزق تأكل منه ، وأكرمك بمنهج تهتدي به ، ورسول تقتدي به ، وسيكرمك في الآخرة إن أطعته بجنَّة عرضها السموات والأرض فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة/ ٧٢] .

فأيُّ إكرام لك فوق هذا ...؟ وأيُّ خير بعد هذا ...؟ وأيُّ نعيم بعد جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين نزلاً في الآخرة ...؟

فإن أطعت ربّك فإنما تنفع نفسك ... وإن عصيت ربّك فإنما تضر نفسك ، فإن الله لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ، لأنه هو الغني الحميد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر/ ١٥] .

ولكن الله يحب من عبده الطاعة ليثيبه عليها الجنة ... ويحب من عبده الشكر على النعمة ، ليزيده منها ... ويحب منه الاستغفار من الذنب ، ليغفر له : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة/ ١٤٣] .

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قدِم على رسول الله ﷺ بسبي ، فإذا امرأة من السبي تبتغي ، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النّار؟» قلنا:لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه ، ، فقال رسول الله ﷺ : «لله أرحم بعباده من هذه بولدها »متفق عليه [1].

إن من رحمة الله بنا أن أكرمنا برزق طيب نأكل منه ، وقرآن عظيم نهتدي به ... ورسول كريم نقتدي به ... وعقل نعقل به ما ينفعنا وما يضرنا : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء/ ٧٠] .

أرأيت لو تركنا الله هملاً وسدى ... لا أخلاق ولا آداب ... ولا أحكام تنظم شئون حياتنا ... ولا عبادات تصلنا بخالقنا ورازقنا ...كيف تكون حالنا حينئذ ...؟ ستدخل الأهواء ، والشهوات ، والأطماع ، والقوى ، وتقلب الحياة ظلماً وفساداً ، فرقة وأحقاداً ، فيعم الفساد في السموات والأرض ومن فيهنَّ : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون/ ٧١] .

فأي مصيبة تحل بالأمة حينئذ ...؟ وأيُّ خسارة تلحقها في الآخرة ...؟ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء/ ٧٢] .

قال : أكرمك الله بطاعته ، إن في حديثك حياة لقلبي ، وسروراً لفؤادي ، والمرء قليل بنفسه ، كثير باخوانه ...

واعجباً لغفلتنا ... ألا ما أعظم لطف الله بعباده ... وما أجهلنا بحقه ...

خلقنا ، ورزقنا ، وهدانا ، ليكرمنا بجنَّة عرضها السموات والأرض ... ما أظلم العبد لنفسه ... يتحبب إليه ربُّه وهو عنه غني ، ويعتب عليه إن لم يسئله ، ما آثر عليه من المخلوقات شيئاً وهو ، يؤثر عليه كل شيء : ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم/ ٣٤] .

اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٩) ، ومسلم برقم (٢٧٥٤) .

أفضل المخلوقات

إِنَّ آيات الله ومخلوقاته تملأ السماء والأرض وما بينهما ، أمرنا الله سبحانه بالنظر فيها ، والتفكر في خلقها بما وهبنا من عقل فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف/ ١٨٥] .

السموات والأرض ... الشمس والقمر ... الأفلاك والنجوم ... التراب والماء ... الجبال والمعادن ... النبات والحيوان والإنسان ... الليل والنهار ... الزلازل والرياح ... الأحياء والأموات ... المتحرك والساكن ... السائل والجامد .

هذه المخلوقات العظيمة في العالم العلوي والسفلي ، خلقها الله شاهدة بوحدانيته ، تسبح بحمده ، وتخضع لأمره ، فهي مستجيبة لمشيئته ، ومسرعة إلى إرادته : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج/ ١٨] .

هذه بعض آيات الله ومخلوقاته في هذا الكون الفسيح تشهد بوجودها على وجود خالقها ... وتدل بعظمتها على عظمة خالقها وفاطرها ، كما تشهد بقوتها وجريانها وسكونها على قوة خالقها ومدبرها ... وبتنوعها على حكمة خالقها ... وببقائها وإحكامها وتسخيرها على حياة خالقها وكمال قدرته :

إن النظر والتفكير في الآيات الكونية والآيات القرآنية هو الطريق إلى معرفة الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت/ ٥٣] .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد/ ٢٤] .

لقد أكرم الله الإنسان من بين سائر المخلوقات ... خلقه الله بيده ... ونفخ فيه من روحه ... وعلَّمه أسماء كل شيء ... وأسجد له ملائكته ... وشرَّفه بالعقل ... واستخلفه في الأرض ... وسخر له ما في السموات وما في الأرض ، ليقوم بعبادة ربّه الذي خلقه ورزقه وأكرمه فيفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء/ ٧٠] .

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان/ ٢٠] .

فأيُّ شكر قدمه الإنسان لربِّه مقابل هذا التكريم ...؟ وأي شيء قدمه لنفسه ...؟ الا ما أحلم الله على عباده ... يَخلق ويُعبد غيره ... ويرزق ويُشكر غيره ... ألا ما أعظم حلم الله على عباده : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل/ ٦١] .

فمتى يفطن الإنسان لنفسه ، ويعرف حق ربّه الذي خلقه ورزقه ، وأأخرجه وآواه ...؟

ألاما أجهل الإنسان ... وما أعظم غروره : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار/ ٦-٨] .

ولا تعجب حينما تُسأل أحياناً ... وأيُّ قيمة للحياة إلا الأكل والشرب ، واللهو واللعب ، والتمتع والطرب ولا معنى للعبادة ؟ فإن ذلك من إفرازات الجاهلية الأولى التي روَّج لها شياطين الإنس والجنّ بين أفراد الأمة للصَّدِّ عن سبيل الله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة/ ٣٢] .

إن هؤلاء من أجهل الناس ... وأضل الناس ... وأخسر الناس ومصيرهم إلى جهنّم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد/ ١٢] .

رأيت شاباً يتماوت عند أداء الصلاة ، ويسرح عند ذكر الله ...

فقلت : وفقك الله ألا جلست لنتذاكر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وقد أدينا الصلاة ، ألا ترى أن نتبعها بالذكر والتفكر في آيات الله ...؟ قال : بلى .

قلت : إن الله سخرلنا ما في السموات وما في الأرض ، وأمرنا بالتفكر في ذلك فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية/ ١٣] .

فهل أحضرت عقلك لنتفكر ...؟ قال : نعم ...

قلت : فاسمع وفقك الله ...

إن الله ﷻ خلق الجماد ، وخلق ما هو أرقى منه رتبة ، وأقل منه مساحة ، وهو النبات ، وميَّزه عن الجماد بالنمو والتكاثر ...

وخلق ما هو أرقى من النبات رتبة ، وأقل منه كمية ، وهو الحيوان ... وميَّزه عن النبات بالحسِّ والحركة ... وخلق ما هو أعظم من الحيوان منزلة ، وأقل منه عدداً ، وهو الإنسان ، وميَّزه عن الحيوان بالعقل ...

فالإنسان أشرف من الحيوان ... والحيوان أشرف من النبات ... والنبات أشرف من الجماد ...

وبهذا يُعلم أن الإنسان أكرم المخلوقات ، بما وهبه الله من عقل يعرف به خالقه ومعبوده ، ويميز به بين ما ينفعه وبين ما يضره : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل/ ٧٨] .

وسخر الله هذه المخلوقات بحيث يخدم بعضها بعضاً حسب شرف كل منها .

فالجماد كالشمس والأرض والماء ونحوها مسخرة تخدم من هو أرقى منها وهو النبات والحيوان والإنسان ...

فالشمس تخدم الجميع بضوئها ... والأرض تحمل الجميع على ظهرها ... والماء يسقي الجميع ...

والنبات مسخر يخدم من فوقه وهو الحيوان والإنسان ... يرعاه الحيوان ، ويأكل منه الإنسان ... متى شاء وبأيِّ قدر شاء ... ومن أي نوع شاء ...

والحيوان مسخر يخدم من فوقه وهو الإنسان يركبه ، ويأكل لحمه ، ويشرب لبنه .

وبهذا اكتملت للإنسان جميع صفات المخلوقات كالوجود ، والنمو ، والتكاثر والحس والحركة ونحوها ...

واجتمع له مع هذه الصفات العقل الذي به شَرف على غيره ، وامتاز به على سائر المخلوقات ...

فهذا شرف في التكوين ... يناسبه شَرف في الوظيفة : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين/ ٤-٦] .

إن الله خلق الجماد ، وجعله خادماً ومسخراً لمن فوقه من نبات وحيوان وإنسان ...

وخلق النبات وجعله خادماً وخاضعاً لمن فوقه من حيوان وإنسان ...

وخلق الحيوان وجعله خادماً وخاضعاً ومذللاً للإنسان ...

وهذا الإنسان الذي سخر الله له ما في السموات وما في الأرض من يخدم ...؟ من يعبد ...؟ من يرجو ...؟ من يخاف ...؟ من يدعو ...؟

أيعبد ما هو أقل منه رتبة من جماد أو نبات أو حيوان ، أيخضع العالي للسافل ، والسيد للعبد ؟: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة/ ٧٦] .

إذاً لا بد للإنسان أن يعبد ويخدم من هو أعلى منها ومنه ، وهو الرب العلي الأعلى الذي خلقه ورزقه وكرمه وشرفه بالعقل ، ليسعد في الدنيا ، ويفوز بالجنة في الآخرة : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٠٢].

وكيف يعبد ربّه ...؟ ومتى يعبد ربّه ...؟ إن العقل قاصر لا يستقل بمعرفة كيفية العبادة منفرداً ، ولا يعرف أنواع العبادة من صلاة ، وصوم ، ودعاء وذكر ، ولا يعلم ما في الآخرة من الجنة والنار ، والصراط والميزان : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة/ ١٥-١٦] .

فكان لابد له من منهج يُفصّل كيف يعبد الإنسان ربَّه ...؟ وكيف يدعوه ...؟ وكيف يتقرب إليه ...؟ وكيف يعرف ما يحب ربُّه وما يكره ...؟ وماذا أعد الله له في الآخرة ...؟

ولابد أيضاً من مُبلِّغ لهذا المنهج إلى الناس يُفصّل مجمله ، ويُوضح أحكامه ، فكان أن أنزل الله إلى العباد الكتب السماوية ، وأرسل الرسل رحمة بالأمة ، وإقامة للحجة ، وبياناً للحق ، وإظهاراً للعدل : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾[الأنعام/ ١٠٤] .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[الحديد/ ٢٥] .

ألا ما ألطف الله بعباده ، وما أجهل الإنسان ، وما أظلمه لنفسه .

قال : حقاً إن مصيبتنا في التفريط واحدة ، فمقل ومستكثر ... ألا ما أطيب هذا الحديث لقد نوَّرت قلبي وعقلي بما قلت ، ودللتني على ما يَنفعني ، وخير الماء ما وافق الظمأ : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة/ ٤] .

إن حضور مجالس الذكر فيه حياة للقلوب ، وتنبيهاً للعقول ، زِدنا زادك الله فضلاً وعلماً ... فكم كنت عن الموعظة غافل ، وعند نتن الدنيا حاضر : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت/ ٦٤] .

قلت : صدق الله العظيم : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد/ ٢٨] .

وفقك الله لما يحب ويرضى ، وجعلك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر/ ١٧-١٨] .

إنَّك لو سألت أحداً من البشر ...

ما الحكمة من خلق الطعام ؟ لقال لنأكله ...

ما الحكمة من خلق الماء ؟ لقال لنشربه ...

ما الحكمة من خلق الهواء ؟ لقال لنتنفس منه ...

قال : هذا لا يختلف فيه اثنان ، أو يشك فيه إنسان .

قلت : فاسمع وأجب ...

ما الحكمة من خلق عقلك ؟ قال : أميز به ما ينفعني وما يضرني وأعقل به ...

ما الحكمة من خلق قلبك ؟ قال : أتفكر به ...

ما الحكمة من خلق عينيك ؟ قال : أبصر بهما ...

ما الحكمة من خلق أذنيك ؟ قال : أسمع بهما ...

ما الحكمة من خلق يديك ؟ قال : آخذ وأعطي وآكل وأكتب بهما ...

ما الحكمة من خلق رجليك ؟ قال : أمشي بهما ...

ما الحكمة من خلق لسانك ؟ قال : أتكلم به ...

ما الحكمة من خلق جهازك الهضمي ؟ قال : أهضم به الطعام ...

قلت : إن هذه الأعضاء جميعاً لها حكمة ، وهي أجزاء تخدم الكل ... وهذا الكل وهو الإنسان أليس له حكمة ...؟ أيكون خلق أجزائه في منتهى الحكمة ، ويخلو هو من الحكمة ...؟ : ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون/ ١١٥] .

قال : قد قالوا ... إن حكمته أن يأكل ويشرب وينعم بما شاء ...

قلت : فليأكل وليشرب ولينعم بما شاء مما أحل الله ، ولا يستنكف عن عبادة ربِّه الذي خلقه

ورزقه وإلا كان أضل من الحيوان ... قال : كيف ؟

قلت : إن الحيوان يأكل ويشرب وينعم بما شاء ، لكنه دائماً في خدمة من هو فوقه وهو الإنسان ركوباً وأكلاً وشرباً ، على أنه قد يحسن الإنسان إلى الحيوان أحياناً ، فكيف بالله الذي نعمه علينا لا تُعدّ ولا تُحصى ... وإحسانه الذي ملأ الأرض والسماء ... له الخلق والأمر وحده ... وبيده خزائن السموات والأرض ... ألا نعبده ... ألا نشكره ... ألا نرجوه ... ألا نخافه ... ألا نطيعه ... ألا نستغفره ... ألا نستغيث به ... ألا نتوكل عليه ... ألا ندعوه .

إن ذلك لا ينبغي إلا لله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة/ ٢١-٢٢] .

إنك لو طَوفت في بقاع الأرض كلها ، وسألت أهلها جميعاً ...

هل لحذاء الإنسان من حكمة ؟ لأجابوك إجابة واحدة ... إنها تحمل الإنسان ، وتقيه أذى الحرِّ والبرد ... فإذا سألتهم عن هذا الإنسان وقلت : حذاؤه له حكمة ، وهو هل له حكمة ...؟ لوجدت أكثرهم لبعده عن الله لا يَشفي جوابه ، ولا يُعقل حديثه ... أرأيت جحوداً وتعطيلاً للعقل والفكر أعظم من هذا ...؟ : ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ ﴾ [ق/ ٦-٨] .

واهٍ لعقول صنعت القطار والطائرة ، واكتشفت الذَّرَّة والقنبلة ، وشيدت القصور ، وزرعت البقاع والسهول ، وملأت أقطار الأرض بالمصنوعات والأعاجيب ...

واهٍ لها ... كيف لا تعرف ربّها ...؟ وكيف لا تعرف نفسها ...؟ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج/ ٤٦] .

ألا ما أظلم الإنسان لنفسه ... وما أظلم الإنسان للإنسان ... إن قلباً لا يفقه ، وعيناً لا تبصر ، وأذناً لا تسمع ، لجديرة بأن تورد صاحبها سواء الجحيم : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف/ ١٧٩] .

يا صاحب العقل والفكر إن الله هو الذي خلق السموات والأرض وحده ، فأعمل عقلك وفكرك كيفما شئت فلن تجد غيره : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس/ ٣١-٣٢] .

يا صاحب العقل والقلب ، والسمع والبصر ، إن الله هو الذي سخر لنا ما في السموات وما في الأرض وحده ... فاعقل وفكر ، واسمع وأبصر كيفما شئت ، فلن تجد ذلك إلا لله وحده : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الذاريات/ ٥٠] .

يا صاحب العقل والفكر ، إن رحمة الله ولطفه بالخلق ملأت السموات والأرض ، فتدبر ذلك وتأمله ، فلن تجد ذلك أبداً إلا لله وحده : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر/ ٢٢] .

يا صاحب العقل والقلب والبصر .. إن الله له الملك والخلق والأمر وحده ... ومنه الرزق وحده ... بيده الملك وهو على كل شيء قدير : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران/ ٢٦] .

لو فكرت عقول البشرية جمعاء تفكيراً بلا هوى لما وجدت ولن تجد ذلك كله إلا لله وحده ... الذي خلق فسوى ، والذي قدَّر فهدى ، ولكنه الكبر والعناد : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام/ ٣٣] .

اللهم إنا نعوذ بك من مضلات الفتن ، ومن علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران/ ٨] .

خلق الله الإنسان مختـــاراً

قد ترى فلاناً من الناس تارة يتصدق ويحسن ، وتارة يبخل ، فإذا ما طُلِبَ منك الحكم عليه وسئلت ، هل هو كريم أم بخيل ...؟ ترددت في الجواب ، لأنه يصدر منه تارة الإحسان والمعروف ، وتارة البخل ... ومثل ذلك أفعال الإنسان ... إن كل واحد منا تصدر منه أفعالٌ يرى نفسه مخيراً فيها ... يختار ما شاء ... يلبس ما شاء ... يأكل ما شاء ... يشرب ما شاء ... يتكلم متى شاء ... يقوم ويجلس ... يطيع ويعصي ...

وبالمقابل تصدر منه أفعالٌ يرى نفسه مسيَّراً فيها لا خيار له ... يدق قلبه ولا خيار له فيه ... ينمو جسمه ولا خيار له فيه ... يجري دمه ولا خيار له فيه ... ويعمل الجهاز الهضمي والعصبي والتنفسي ولا خيار له في واحد منها ، فما علَّة ذلك ؟ هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر ؟

لننظر ... إن فيه ما يدل على هذا وهذا : ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات/ ٢١] .

إن الله شرف الإنسان بالعقل على سائر المخلوقات ... فالمخلوقات أنواع أربعة :

نوع لا عقل له ولا شهوة ... وهو الجماد والنبات .

و نوع له عقل ولا شهوة له ... وهم الملائكة .

و نوع له شهوة ولا عقل له ... وهو الحيوان .

نوع له عقل وشهوة ... وهو الإنسان .

فأكرم هذه المخلوقات هو الإنسان الذي شرفه ربُّه بالعقل ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، ليقوم بعبادة ربِّه ، فيفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت/ ٣٠-٣٢] .

إن الجماد له جرم ولون وحيِّز، والنبات له ذلك ويتميز بالنمو، والحيوان له كل ذلك ويتميز بالحسِّ والحركة ، والإنسان له كل ذلك ويتميز بالعقل الذي يميز به بين البدائل ، بين ما يراه نافعاً وما يراه ضارّاً...فيختار... فالإنسان فيه من صفات الجماد،والنبات،والحيوان[1] .

(١) القرآن معجزة ومنهج – للشعراوي .

فما فيه من صفات الجماد، والنبات والحيوان فهو مسخَّر ومسير فيه، لا خيار له في ذلك أبداً ...
فالإنسان له جرم ولون وحيِّز كالجماد وهو مسيِّر فيه، وهو ينمو كالنبات وهو مسيَّر فيه ...
وهو يحسّ ويتحرك، ويعمل بداخله الجهاز الهضمي والدموي والعصبي والتنفسي، وهو مسيَّر في ذلك كالحيوان لا خيار له فيه.

وهذا منتهى الرحمة واللطف، حيث جعلها الله كلها بعنايته وحفظه، ولم يتركها للإنسان، لأنه ينام وينسى ويضعف: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء/ ٤٢].

فما في الإنسان من صفات الجماد والنبات والحيوان فهو مسيَّر فيها برحمة الله.

ومتى يكون الإنسان مختاراً؟

يكون الإنسان مختاراً في دائرة العقل فقط ... العقل الذي يُعرَض عليه الحكم والفعل، والأمر والنهي، فيختار ويميِّز بين أن يفعل هذا، أو يفعل هذا.

فيختار ما يراه صالحاً كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإنسان/ ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف/ ٢٩].

فإذا عرف الحق فإن اتبعه دخل الجنة ... وإن كفر به دخل النار: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة/ ٣٨-٣٩].

ومن هنا نعلم أن التكليف لا يكون إلا على من يعقل، فإذا فقد العقل الذي يميز به بين البدائل، بين الخير والشرِّ، بين الحقِّ والباطل، بين الصِّدق والكذب، ارتفع التكليف ... ألا ترى أنه لا تكليف على المجنون والصغير والنائم، لغياب العقل أو عدم نضجه.

قال النبي ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل» أخرجه أحمد والنسائي[1].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٤٦٩٤)، والنسائي برقم (٦/ ١٥٦).

إن الله أحلَّ الطيبات ، وحرَّم الخبائث ، وأمر بالنكاح ، ونهى عن الزِّنا ، وحثَّ على الصدق ونهى عن الكذب ، وأمر بالإيمان ، وحذَّر من الكفر : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل/ ٣٦] .

هنا يأتي دور العقل ، فيختار أحدَ الطريقين ، ويكون الثواب والعقاب حسب الاختيار ، والعقل قاصر لا يدرك كُنه كل شيء ، ولا يستقل بمعرفة كل ما ينفع ، وكل ما يضر ، فكانت بعثة الرسل ، وإنزال الكتب ، تُعرِّفه وتهديه إلى ما ينفعه في دنياه وآخرته .

وليس في اختيار العبد خروج عن مشيئة الله ، فإن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، له الخلق والحكم والأمر كله ، لو أراد أن يهدي الناس جميعاً لفعل ، لا مانع يمنعه ، ولا معقب لحكمه : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٤٩] .

ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك بل تركهم لمحض إرادتهم ، وخلى بينهم وبين العمل ، بعد أن عَرَّفهم الحق ، لتكون عبادتهم عن اختيار لا عن إكراه وإجبار ، ابتلاءً منه سبحانه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان/ ٢-٣] .

إن الله سبحانه خلق المخلوقات على قسمين :

مخلوقات مسخرة في طاعة الله ، وهي جميع المخلوقات سوى الإنس والجن .

ومخلوقات مخيرة إن شاءت أن تؤمن أو تكفر ، وإن شاءت أن تطيع أو تعصي ، وهؤلاء هم الإنس والجن : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات/ ٥٦-٥٨] .

والله يحب من يأتي إليه اختياراً ، وهو قادر ألا يأتي ، وهو الحكيم الخبير في خلقه وأمره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج/ ١٨] .

فيختار الإنسان ما يشاء ، وانما يسعد أويشقى بنوع اختياره : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٥٦] .

أفعـــال العبـــاد

إن الله سبحانه وتعالى قد كتب مقادير الخلائق وأحصاها، وخلق كل شيء فقدره تقديراً كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القمر/ ٤٩-٥٣].

فكل شيء مقدر ومكتوب: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النبأ/ ٢٩].

وقال رسول الله ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قَالَ وَعَرْشُهُ عَلى المَاءِ». أخرجه مسلم(1).

فالخلق والأمر لله وحده، قد أحاط بكل شيء علماً: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق/ ١٢].

وقد فطر الله الناس على التوحيد: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم/ ٣٠].

وما كان من جنوح الإنسان إلى الشر، فسببه فساد الفطرة التي قد تؤثر فيها البيئة.

قال النبي ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » متفق عليه(2).

وكان الناس في أول عهدهم أمة واحدة على التوحيد، فلما اختلفوا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، لإزالة الخلاف، وإرجاع الناس إلى الحق، رحمة منه وفضلاً: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة/ ٢١٣].

إنَّ الله خلق كل شيء ... وأحاط بكل شيء ... وعلم كل شيء ... وأحصى كل شيء، في كتاب لا يضل ربِّي ولا ينسى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج/ ٧٠].

فأفعال العباد كلها معلومة لله، مكتوبة في اللوح المحفوظ ... وليس معنى هذا أن الله أجبر العباد

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٣).

(٢) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم (١٣٥٨)، ومسلم برقم (٢٦٥٨).

وألزمهم بهذه الأفعال خيرها وشرها ... وإنما عِلمُ الله بالأفعال بالنسبة إلينا علم انكشاف ، لاننا ضعاف وعلمنا محدود ، والله قد أحاط بكل شيء علماً ... فأيُّ فعل من أفعال العباد إنما يظهر من اللوح المحفوظ ، ويفعله العباد كما علمه الله ، فإن الله سبحانه علم ما كان ، وما يكون ، وما سيكون ، خلق كل شيء ، وعلم كل شيء : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٠٢] .

فالله قد علم أفعال العباد كلها ، وكتبها في اللوح المحفوظ ، لا ليُلزم بها العبد ، وإنما لأنه عالم بالعبد وفعله ... فقد علم سبحانه بأن عبده فلان يولد في وقت كذا ... ويكون كافراً أو مؤمناً ... طائعاً أو عاصياً ... من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة ... لأنه أحاط بكل شيء علماً : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك/ ١٤] .

فكل ما يفعله العباد ، وكل ما يجري في الكون ، إنما يقع مطابقاً لما في اللوح المحفوظ كما عَلِمه الله وكتبه ... ويفعل الله ما يشاء ، لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، له الملك وله الحمد : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد/ ٣٩] .

إن أفعال العباد عَلِمها الله كلها ، وأحصاها كغيرها : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النبأ/ ٢٩] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « ما منكم أحد ، وما من نفس منفوسة إلا قد كُتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » ، قال رجل : يا رسول الله، أفلا نتَّكل على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء » ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ » متفق عليه[1].

فبين النبي ﷺ أن الله عَلم أهل الجنة من أهل النار ، وأنه كتب ذلك ، ونهاهم أن يتَّكلوا على هذا الكتاب ويدعوا العمل كما يفعله الملحدون .

---

(١) **متفق عليه** ، أخرجه البخاري برقم (٤٩٤٨) ، ومسلم برقم (٢٦٤٧).

وقد يقال ... ما دام أن الله قد كتب عليَّ أني من أهل الطاعة ، أو من أهل المعصية ، ففيم العمل إذاً ...؟

فنقول : هل اطلعت على اللوح المحفوظ ، وعلمت منه أنك من أهل الجنة أو أهل النار ؟ لم تطَّلع وليس ذلك إليك ، وإنما ذلك يعلمه الله وحده : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن/ ٢٦-٢٧] .

وقد علمنا أن عِلْم الله بالأفعال والمصائر علم انكشاف بالنسبة لنا ، بمعنى أن الله سبحانه علم كل أفعال العباد قبل أن يخلقهم ويخلق أفعالهم ، وكتبها في اللوح المحفوظ ، وكل أحد لا يدري بم يختم له ، ولكن عليهم أن يعملوا وكل ميسر لما خلق له .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن الله سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه وقد جعل للأشياء أسباباً تكون بها ... فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب ... علم أن هذا يكون سعيداً في الآخرة ، وهذا شقياً في الآخرة ، ذلك لأنه يعمل بعمل الأشقياء ، فالله علم أنه يشقى بهذا العمل ... الخ .

إن الله قادر على كل شيء ، فلم يقع شيء من أفعال العباد إلا وقد علمه قبل أن يقع ، ولو شاء لأجبرنا على الفعل ، ولكنه رحيم رؤوف بالعباد ، لم يكلفهم إلا بشيء هم قادرون على فعله أو عدم فعله ابتلاءً منه ، بيَّن لهم الحقَّ ووهبهم العقل وتركهم يختارون : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾[الكهف/ ٢٩] .

وقد جعل الله لكل شيء سبباً ، فما عند الله ينال بأسبابه التي شرعها ، فالدنيا لها أسباب ، والجنة لها أسباب ، والنار لها أسباب ، وقد أمرنا الله بفعل الأسباب فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج/ ٧٧] .

ورتب الثواب والعقاب على اختيار العبد ، فمن آمن وعمل صالحاً أعانه الله وأدخله الجنة : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل/ ٥-٧] ، ومن كفر وردَّ الحقَّ أدخله الله النار : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل/ ٨-١٠] .

فالله يعين من يقبل عليه ويؤمن به : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد/ ١٧].

ومن كفر وأعرض عن الله فإن الله لا يهديه : ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ

﴿أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران/ ٨٦] .

إن جميع التكاليف الشرعية الإنسان قادرٌ أن يفعلها أو لا يفعلها ... خلقه الله صالحاً للعمليتين : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان/ ٣] .

أي دللناه على الطريق المستقيم ، فإما شاكراً لأنعم الله وإما كافراً بأنعم الله ، فهو صالح لأن يفعل هذا أو يفعل هذا والذي يرجح العقل ، والنفس صالحة لأن تكون فاجرة أو تقية : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس/ ٧-٨] .

وحيثما اتجهتْ النفس كان الثواب والعقاب ، فإن أطاعت فلها الجنة : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس/ ٩] ، وإن عصت فلها النار : ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس/ ١٠] .

فالتوجه إلى أحد الطريقين هو محل الحساب عند ربِّ العالمين ... فالطاعة والمعصية باختيار العبد ، وجعل الله الثواب والعقاب على هذا الاختيار: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت/ ٤٦] .

وقال ﷻ في الحديث القدسي : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » أخرجه مسلم(١).

وكل شيء يقع في الكون فإنما يقع بمشيئة الله ، وكل خير وقع فإنما أراده الله كوناً وشرعاً ، وكل شر وقع فإنما أراد الله وقوعه كوناً لا شرعاً ، لأنه لا يقع في ملكه شيء إلا بإذنه وعلمه ومشيئته : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص/ ٨٧] .

والله ﷻ بيده الخير كله ، والشر ليس إليه ، وكل أفعاله في ملكه خير ، وكل شر وقع فهو مقرون بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة مقرونة بالخير المطلق ، والخير والشر إنما وقع بقضاء الله وقدره : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء/ ٧٨] .

وجميع أنواع الخير والحسنات كلها من الله ، وجميع أنواع الشرور والسيئات من العبد : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء/ ٧٩].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).

سبيل الفوز والنجاة

إن الإسلام دين عالمي ينظم حياة الفرد ، وحياة المجتمع ، وحياة الأمة ، في المصنع والمنزل ... في البر والبحر ... في السفر والحضر ... في الشدة والرخاء ... مع الذكر والأنثى ... مع الصديق والعدو ... مع القريب والبعيد ...

إنه دين كامل نظم أمور الحياة كلها : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة/ ٣] .

فلنأخذ به في أمور حياتنا كلها ، لنسعد في الدنيا والآخرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال/ ٢٤] .

إن الإسلام دين الله للبشرية كلها في الأحوال كلها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٠٨] .

إن الإسلام نقل أمة العرب من الجاهلية الكبرى إلى حكم الإسلام ... في الأخلاق والسلوك ... في التربية والتعليم ... في النظم والعلاقات .

نقلهم من الكفر إلى الإسلام ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفرقة إلى الوحدة ، ومن الظلم إلى العدل .

فلنأخذ منه أخلاقنا ، وسلوكنا ، وعلومنا ، ونظمنا ، وعباداتنا ، ومعاملاتنا ... ففيه تبيان كل شيء : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل/ ٨٩] .

إن الإسلام نقل أمة العرب من العصبيات القبلية والفوارق الاجتماعية ، والحروب الطاحنة ، إلى خير أمة أخرجت للناس ، إلى أمة موحدة ... ربها واحد ... وكتابها واحد ... وقبلتها واحدة ... ورسالتها واحدة ... واستطاعت بهذه الوحدة أن تتخطى حواجز العقول والقلوب ... وأن تقدم الإسلام للناس برفق وحكمة وعدل ... فدخل الناس في دين الله أفواجاً ... وأشرقت شمس الإسلام في أصقاع المعمورة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة/ ٣٣] .

إن الإسلام دين الله للبشرية كلها ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، فيجب علينا إبلاغه للناس كافة : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم/ ٥٢] .

فلنأخذ بهذا المنهج العظيم كما أنزله الله هدى وشفاء ، وندعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل/ ١٢٥] .

إن الإسلام نقل أمة العرب من أمة تنام على السكر والقمار ، وعبادة الأوثان ... وتعكف على أبواب الكهان والسحرة ... وتأكل الربا ... وتستحل الزنا ... إلى أمة مسلمة لربها ... تأكل الطيبات ... وتتحلى بالفضائل ... وتعبد الله وحده ... وتدعو إلى الله وحده ... لا تبغي بالإسلام بدلاً ... ونزع الله بالإسلام قشرة الجاهلية الضَّالة ، وظهر الإنسان كما فطره الله .

صادقاً في إيمانه ... حسناً في أخلاقه ... كريماً في إنفاقه ... قويّاً في جهاده ... طيباً مع أهله وجيرانه وإخوانه ... مخلصاً في عبادته ... شاكراً لربِّه ... مطيعاً لله ورسوله : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح/ ٢٩] .

فلنأخذ بما أمرنا الله ورسوله به ، لنفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٧١] .

ألا ما أحوجنا إلى العالم الذي يُعلِّم بصدق وإخلاص ... والطبيب الذي يعالج برحمة وحب ... والبائع الذي يبيع بأمانة وصدق ... والعامل الذي يعمل بإخلاص وتفان ... والزَّارع الذي يزرع بنيّة صادقة وعزيمة نافذة ... والعابد الذي يعبد ربّه بإخلاص وخشوع .

إيمان وطاعة ... عبادة ودعوة ... صدق وإخلاص ... حب ورحمة ... صبر وأمانة .

ألا ما أطيب هذه الجواهر ... إنها أغلى من الذهب : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر/ ١-٣] .

ألا ما أعظم هدايةَ كتاب ربِّنا ... فلنأخذ به ففيه الهداية لكل خير : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء/ ٩] .

إن الله سميع قريب مجيب ... فلندعوه ... ونستغفره ... ونستجيب له ... ونتوب إليه ... أليس الله يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ [البقرة/ ١٨٦] .

ألا ما أكثر الذنوب والمعاصي التي اقترفناها ... فهل نرجع إلى الله ونتوب إليه ... إن الله ينادينا : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر/ ٥٣] .

إن ربك الرحمن الرحيم جعل لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام ، يتطهرون بها في الدنيا ، فإن لم تف بطهرهم ، طُهروا في نهر الجحيم يوم القيامة : نهر التوبة النصوح ، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها ، ونهر المصائب العظيمة المكفرة : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) ﴾ [النساء/ ١١٠] .

ألا ما أعظم جهلنا بحقِّ ربِّنا ... وما أشد ظلمنا لأنفسنا ... فهل نتوب إلى الله لعله أن يرحمنا ويغفر لنا ... إن الله يقول : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) ﴾ [الأنعام/ ٥٤] .

ألا ما أشد عقوبة الظلم والظالمين ... فلنبتعد عن الظلم والظالمين ، لننجوا من عذاب النَّار : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود/ ١١٣] .

ألا ما أعظم فتنتنا بالحياة الدنيا ... وما أشد غفلتنا عن الآخرة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر/ ٥] .

فهل نتقي الله ، ونقدِّم الأعمال الصالحة ... للحياة الباقية ... نسأل الله أن يهدينا : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) ﴾ [النساء/ ٧٧] .

ألا ما أشد عداوة الشيطان للإنسان ، وما أعظم إغواءه ، فلنبتعد عن الشيطان ... ونحذر من كيده وتضليله ... لقد قال ربُّنا : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر/ ٦] .

ألا ما أعظم الشرك والمعاصي ... وما أشد العقاب لمن وقع في ذلك ... فهل نتوب إلى الله من كل شرك ومعصية لننجوا من النار : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾ [النساء/ ١٤] .

ألا ما أحسن الإيمان والاستقامة على الهدى ... وما أخطر اتباع الأهواء والأعداء ...

فلنستقم على الهدى ... ولا نتبع أهواء الأعداء فإن الله يقول : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى/ ١٥] .

ألا ما أسعد من أطاع الله ورسوله ... عِزَّة وسعادة في الدنيا ... وجنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء/ ١٣] .

ألا إن الله أكرمنا بقرآن نهتدي به ... ورسول نقتدي به ... وعقل نميِّز به ... فلنسارع إلى الخيرات لنفوز بمغفرة الله وجنته : ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران/ ١٣٣-١٣٤] .

ألا إن الفلاح حقاً ، والسعادة حقاً ، لمن آمن بالله ورسوله ... وعبد الله واتقاه واستقام على دينه ...

فهل نطيع الله ورسوله ... ونعبد الله كما أمر ... ونستقيم على دينه ... اللهم اهدنا سواء السبيل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت/ ٣٠-٣٢] .

اللهم تقبل منَّا إنَّك أنت السميع العليم ، واغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات/ ١٨٠-١٨٢] .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود/ ٨٨] .

الخـــاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتنزل البركات ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أخي المسلم الكريم : إنما الخير والنصح أردت في تحرير هذه الأوراق ، والمؤمنون نَصَحة بررة وأحباب كرام .

فإن رأيت صواباً فانتفع به وبلِّغه ، وفقك الله ونفع بك ، ولا تنسنا من دعائك الصالح ، غفر الله لنا ولك ولجميع المسلمين .

وإن رأيت خطأ فادع الله لي بالمغفرة غفر الله لك ، ونبهني ، فكل بني آدم خطاء ، وإنما المؤمنون إخوة نصحة .

وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اللهم وفقنا للعمل بكتابك واتباع سنة نبيك محمد ﷺ .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة/ ٢٨٦] .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

